

محمد علي فطرح

مذايح وجرائم

محاكم النفس

في الأندلس



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له،

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده له شريك، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت.

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون؛ فصلاة الله وسلامه على هذا النبي الكريم والإمام العظيم أفضل صلاة وأزكى تسليم، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

وبعد...

فإنه قد يتساءل الناس عن الداعى إلى إثارة موضوع «مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس» من جديد، رغم أنه قد مضت عليه عقود طويلة من السنين، وأن الحوافز والبواعث إليه قد زالت وأُمحَتْ آثارها — أيضاً — ؟!! والأندلس^(١) قد عادت إلى نصرانيتها!!

والتساؤل فى ظاهرة مقبول غير مردود، ولكنه عند التحقق والبحث يجعلنا فى موقف اصحاب الدعوى لا فى موقف المدعى عليه،

(١) الأندلس : وادى فى «إسبانيا» وليس إسبانيا كلها.

ذلك أنَّ «فلسطين» كوطن إسلامي — عربى قد انتزع من أهله وأصحابه، تحت سَمْع العالم وبصره، وبتآمر مستمر تواطأت فيه كل قوى الكُفر على الإسلام وأهله ودياره، مستغلة حالة التقهقر النفسى والحضارى التى عصفت بالأمة الإسلامية، أو التى عملت تلك القوى على بذرها وزرعها فى القلوب والعقول بوسائل شتى وأساليب مختلفة، فمهدت للغزو بالزرعزة من الداخل...

وكان من تعميم الرؤية وقصر النظر — أو العمالة — أن شغل العرب والمسلمون بالقضية الفلسطينية وجعلوها محور الصراع بينهم وبين الصهيونية مدعومة بالامبريالية الرأسمالية الغربية !!!

ونسوا — أو تناسوا — أن إسقاط الدولة العثمانية (الرجل المريض) بكل معطياتها السياسية والعسكرية والجغرافية — حتى الإقليمية — كان هدفاً رئيسياً وأساسياً فى تحطيم بوابة الشرق : (La porte d'Orient) والوثوب على العالم الاسلامي .

كما نسوا أيضاً — أو تناسوا — النزاعات التى قامت أو تقوم فى «كشمير» و «قبرص» و «أفغانستان» و «الصومال» و «أريتريا» و «الصحراء المغربية» — الصحراء الإسبانية^(١) !!!

ومع كل تلك الصراعات والنزاعات تتجدد «محاکم التفتيش» بكل حقدها ومرارتها وفضاعتها، وليلها الدامس الطويل !

ومن العجب أن نظل نحن الاسلاميين، فكراً وحركة، نُوهَم أنفسنا بما يسمى بـ «مقاطعة العالم الإسلامي» !!!

(١) تُنسب إلى إسبانيا رغم البعد الجغرافى والحواسر الطبيعية، نظراً لاستعمارها من قِبل الإسبان فترة زمنية طويلة.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُلْهِمَنَا الصَّوَابَ وَالسَّدَادَ، وَيُوفِقَنَا لِمَا فِيهِ
الْخَيْرُ دُنْيَا وَآخِرَةً، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ.

والحمد لله أولاً وآخراً.
المؤلف
محمد علي قطب



الفتح الإسلامي — أهدافه ومراميه

إن الحديث عن «الأندلس» و «محاكم التفتيش» يجرنا حتماً إلى الحديث عن «الفتح الإسلامي» عموماً، من غير تحديد بجهة معينة و بلد أو ظرف معين.

ولقد قيل عن «الحرب والسلام» في الإسلام الشيء الكثير مما لا مجال لإعادة القول فيه تكراراً واستجراراً، ولكننا نلاحظ بعض الملاحظات التي نرى ضرورة ماسة في إيرادها توثيقاً للأسس التي قام عليها الفتح، ومنها انطلق..

نعود بالذاكرة الى يوم «الأحزاب»، حين كان المسلمون يعملون في إقامة الخطّ الدفاعي عن أنفسهم بحفر «الخندق»، وقد تألّبت عليهم كلّ القوى المعادية؛ قبلية وعرقية وعنصرية^(١)، إذ اعترضتهم كذبة^(٢)، صخرة صلبة..، فتناول الرسول القائد «ﷺ» المغول وضربها بيده الشريفة فجعلها جذاذاً وفتاتاً...

وأضاءت برقاً لامعاً وشهاباً ثاقباً تحت وطأة المغول، مرتين اثنتين!!!، الأولى شرقاً والثانية غرباً، فبشّر النبي «ﷺ» أصحابه بـ «الفتح العظيم وسقوط عرشى كسرى» و «قيصر»...

(١) اليهود من أهل المدينة، الذين نكثوا عهودهم ونقضوا موافقتهم مع رسول الله «ﷺ» وتحالفوا مع الأحزاب.

(٢) الكذبة : الصخرة الهائلة.

لقد بَشَّرَ « عليه الصلاة والسلام » أصحابه بالفتح وهم في حالٍ يتنافى شكلاً ومضموناً مع البُشرى ، اللهم إلا من زاوية واحدة وخلفيّة واحدة ، هي : الإيمان ، تلك القوة الهائلة التي قارعوا بها الدنيا على مدى قرون طوال ، وانتصروا... ، وصَدَقَ من قال : لقد اكتشف الإسلام قوة النفس الإنسانية قبل أن يكتشف العالم قوّة القبلة الذرية ...

بشرهم « عليه الصلاة والسلام » بالفتح وهم يَحُلُو من أى أمل في النصر على عدوهم ، في ذلك الظرف الزمني المحدود ، والصراع المادّي ... (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نُصِرَ الله ...) وكانوا قد (زُلْزِلُوا زَلْزَالاً شديداً) ، (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) خوفاً ورغباً وهلعاً فالتركيز على عامل الإيمان بهدف النصر كان الأساس الذي تبنى عليه كل التوجهات النضالية والقتالية .

حيثما كان ظُلم على وجه الأرض ، فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه ، لا تملك الأرض وتذل الرقاب بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض ، وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله .

وهذا هو ما يُطلق عليه في الاسلام : (الجهاد في سبيل الله) ، أى الجهاد لتحقيق ربوبية الله للعباد ، لتكون كلمة الله العُليا ، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين ، بل بإتاحة الفرصة لهم ليُخلصوا من ربوبية الطواغيت ، ويملكوا حُرّيّة الاختيار دون تدخل في القوّة الطاغية الضالّة ، ويستمتعوا بالعدل المطلق الذي يريده لهم الله :

وذلك مفرق الطريق بين الجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الشهوات .

إن قوة الإسلام قوة محررة تنطلق في الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال ، وهي لا تنظر في هذا المجال لجنس ولا لون ولا لغة ولا أرض ، الناس سواء ، كلهم ناس ...

حيثما كان ظلم فالإسلام منتدب لرفعه ودفعه ، وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميين ، أو على سواهم ممن لا يربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق ...

﴿ الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ .

وأظلم الظلم تعييد العباد لغير الله وإقامة أرباب يشرعون مالم يأذن به الله ، وحيثما واجه الإسلام الفرد الظالم أو الطبقة الظالمة أو الدولة الظالمة ، واجههم على أنهم جماعة من البشر تظلم جماعة من البشر ، لا على أنهم سود أو حمر أو صفر أو بيض .. ، ولا على أنهم مسيحيون أو يهود أو نصارى .. ، واجههم بقدر ما يعطّلون من تحقيق كلمة الله في الأرض ، ومن تحقيق السلام الحقيقي لبنى الإنسان .

والإسلام يواجه القوى الواقعة في وجهه بواحدة من ثلاث :

١- الإسلام .

٢- أو الجزية

٣- أو القتال

فأما الإسلام فلأنه الصورة الأخيرة لدين الله الخالد ، ولأنه الهدى للبشرية جمعاء ، ولأنه الناموس الذى يحقق العدالة الإنسانية الشاملة للجميع .

وأما الجزية فلأنها دليل الكف عن المقاومة ، وتحقيق حرية الدعوة ، وإزالة القوة المادية التى تُصدّ الناس عنها .

وأما القتال فلأنه فى هذه الحالة هو الرد الباقى على مقاومة كلمة الله عن إصرار وعناد ، وحرمان البشرية من الاستمتاع بما تحمله لها هذه الكلمة من نور وعدل وسلام شامل كامل لبنى الانسان .

وحين ينطلق الإسلام ليقوم بواجبه فى التحرير والتطهير لا ينسى أن مصلحة البشرية العليا هى هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ، ولا مصلحة المسلمين الخاصة ، فلا مجال إذن لفكرة قداسة الدولة أو الجنس التى تبيح المحظور ، وتبرّر المنكر ، وتصف الغدر والنفاق والكذب بالبراعة الساسية ، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية !!!

إن العهد مقدس ، مهما يُفوت على المسلمين من مصالح قريبة ، ومطامح مرغوبة ، وإن الشرف مرعى مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب ، وإن الشعور الانسانى ملحوظ ، مهما تكن قسوة المعركة ، وحرارة الضرب والحرب ..

وقد كسب الإسلام بذلك كلمة ولم يخسر فى النهاية ، كسب الأرواح والقلوب ، وكسب توطيد المبادئ العليا التى جاء لإقرارها فى الأرض ، وعوض فى النهاية ما فقدته بالمحافظة على العنصر الأخلاقى فى السلم والحرب من خسائر جُزئية ومتاعب وقتية ، وشهد فى فترة

قصيرة كيف جاء نصر الله والفتح ، وكيف دخل الناس في دين الله أفواجا .

لقد جعل الإسلام قانونه في العالم الدولى ، بل العالم الإنسانى هو الوفاء بالعهد :

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء -

١٧) .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (النحل - ٩١ ، ٩٢) .

فهذه الحجة التى تتخذها « الدولة » فى أوربا لتبرير نقض العهود والمواثيق ، حجة مصلحة الدولة ، ينص عليها القرآن هنا :
﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ ، وينص على أن هذه الرغبة لا تبرر نقض العهد ، وينهى المسلمين عن الاستسلام لها ، ويشبه ناقض العهد ذلك التشبية المزرى : ﴿ كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ !!!

الحرب فى الاسلام هى حرب التحرير البشرية ...

الحرب على عبودية البشر لناس من البشر ، وعلى الطغيان والظلم والشطط ، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير ، حرب التحرير بكل معانيها وفى كل ميادينها ، الحرب الخالصة من الهوى وفى

الدوافع الاقتصادية والعنصرية والطبقية .. ، الحرب التى يشرف الإنسانية أن تخوضها لأنها تقرير للصفات الانسانية وللحقوق الإنسانية وللمبادئ الإنسانية .

إنها ليست الحرب التى تديرها رؤوس الأموال المجرمة لتربح من وراء الصناعات الجهنمية التى تقتات بالأرواح والأجسام ، وتبتلع الحضارات والمدنيات وتحطم النفوس والأخلاق ، أو تديرها الشركات الاحتكارية لحماية مصالحها فى البلاد المستعمرة واستغلال خاماتها من القوى الطبيعية والقوى البشرية وفتح أسواقها للمنتجات والمصنوعات ، أو تديرها البيوت المالية الربوية لتحقيق أرباحها الفاحشة وضمان الكسب الحرام ، واستغلال الفرص ...

إنما هى الحرب التى تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، الحرب التى تحمل معها المساواة والعدالة والكرامة لكل كائن بشرى على سطح هذه الأرض وتحققها فى عالم الواقع وعالم المثال ، تحققها فى التشريع والتنفيذ ، تحققها للأسود والأبيض ، والمسلم والمعاهد .

تحققها فى صورة واحدة ، وبأداة واحدة ، وفى مستوى واحد للجميع .

* * *

الفصل الأول

- الوجود الإسلامي في الأندلس
- الارتباط الأموي
- الارتباط العباسي
- الاستقلال
- الدويلات
- المرابطون ومعركة (الزلاقة)
- الموحدون
- المجتمع الأندلسي

الوجود الإسلامي في الأندلس

تمّ للمسلمين فتح الشمال الإفريقي حتى أقصى المغرب أيام الدولة الأموية ، وعبروا إلى (الأندلس) — إسبانيا — أيام « الوليد بن عبد الملك » سنة (٩٢) هـ ؛ من عند مضيق جبل « طارق » ... وكان أول عبور لهم بقيادة « طريف بن مالك المعافري » أو : « ابن ملوك » كما نسبته وأسماءه « ابن خلدون » لربطه بالجذر البربري ؛ سكان الشمال الإفريقي الأصليين .

ولقد كان هذا العبور حركة استطلاعية أراد منها القائد العام « موسى بن نصير » دراسة طبيعة الأرض من ناحية ، ومدى المقاومة من ناحية ، والتثبت من تحالف « يوليان » معه ، ومدى صدق هذا التعاون .

ثم كان الفتح بقيادة « طارق بن زياد » ، الذي لا يزال المضيق يحمل اسمه إلى الآن ، إذ كانت مغامرته العسكرية في الفتح ضرباً من المعجزات .

ثم تبعه « موسى بن نصير » وأخذ اتجاهاً شرقياً في شبه جزيرة « إيبيريا » — إسبانيا — ؛ ولقد تمّ للقائد العام ، ومولاه « طارق » ... فتح أكثر مساحات البلاد ، وأهمّ مدنها وقلاعها ، في مدّة زمنية وجيزة .

الارتباط الأموي

ولقد توالى على تلك البلاد المفتوحة الولاة من قِبَل بنى « أمية » ،
وخطبَ بِأَسْمِهِمْ فى جوامِعِها ، حتى انتهى أمر الأمويين بالشرق سنة
(١٣٢) هـ .

وفى أيام « عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر » وفَدَّ الناسُ والقبائلُ
من الشام والعراق ومِصرَ وغيرها إلى الاندلس ، فَأُنْزِلَ « عبدالعزیز » كُلُّ
جماعةٍ وقبيلةٍ منهم فى جهةٍ من جهات البلاد ، حسب حاجتها إلى
الأرض والزراعة ، وحَسَبَ حاجةِ الدفاع عن البلاد .

وقام أحد الولاة من بعد « عبد العزيز بن موسى » وهُوَ :
« السَّمْحُ بن مالِك الخولاني » أيام الخليفة الراشد « عمر بن عبد
العزيز » — رضى الله عنه — بأعمالٍ إداريةٍ وعمرانيةٍ كثيرةٍ منها إنشاء
قنطرة « قُرْطبة » عند وادى النهر الكبير ...

ولم يكتَفِ « السَّمْحُ » بالتنظيم الإدارى والنهضة العمرانية ، بل
عَوَّلَ على متابعة الفتح ، متخطياً حدود (إسبانيا) إلى (فرنسا) !!!
ففتح جنوب (فرنسا) ؛ وتوفاه الله تعالى وهو محاصرٌ لمدينة
« ثُولُوز » [طَلُوشة] ؛ وتابع الولاة من بعده عملية الفتح ، فغزا
« عَنبَسَةُ بن سَحِيم » مدينة : « كراكسون » : [قَرْقشونة] ، ومدينة :
« نيم » وغيرها .

أما « عبد الرحمن الغافقى — العككى » فإنه سار إلى « إِرْل » ثم
إلى « بُورْدُو » واستولى عليهما ، كما استولى من بَعْدَ على « ليُون »

و « بيزانسون » ؛ وفتح « ثور » أيضاً .

وفي سهل ممتد بين « ثور » و « يواتيه » كانت معركة « بلاط الشهداء » التي انتصر فيها المسلمون أولاً انتصاراً ساحقاً ، ثم صيَح بهم أن الأسلاب والغنائم قد انتهبت ... فارتدوا للمحافظة عليها وصونها ، وأضطرب جيش « الغافقي » أمام جيش الافرنج المهزوم بقيادة « شارل مارتل » ... ، وبعثاً حاول القائد المسلم أن يثبت جنوده ويلم شعئهم ، فكثُر القتل فيهم وانسحبوا بعد أن امتلأ السهل بجثث الشهداء وعلى رأسهم القائد « عبد الرحمن الغافقي » ...

وكان الارتدادُ عن جنوب (فرنسا) والاستقرار في (إسبانيا)

— الاندلس — .

ومما هو ملاحظ ومُستغرب في حركة الفتح هذه ، أن هؤلاء الأمراء رغم أندفاعهم ، وقوة شكيمتهم وعزيمتهم ... لم يُعولوا على (تطهير) البلاد الاسبانية من بقايا (القوط) و (النافرين) الذين لجئوا إلى سُكنى القسم الشمالى ، وخصوصاً الغربى منه ، متحصنين بالمناطق الجبلية ، وكانوا من بعد سبب أحداثٍ وفتن واضطرابات دائمة ، ونواة القوة المعادية النامية حتى أمكنهم طرد المسلمين من الأندلس !!؟؟

ولا تسَلَّ عما كان يقوم من الاضطرابات والثورات الداخلية في تلك البلاد التي فتحها المسلمون ، سواء في (اسبانيا) أو في (البرتغال) ؛ لما كان من حروب داخلية لاتنقطع بين القبائل ، المضرة والبنية ، والشامية والمصرية ، والبربر والمولدين ، أو بين جملة عناصر منهم ضيّد آخريين ، مما أودى بحياة الآلاف من المسلمين ، وكثير من قادتهم وأمرائهم ...

الارتباط العباسي

واستمرّ تعيين الولاة من قبل بنى « أمية » بالمشرق حتى سنة (١٣٢) هـ ؛ إذ غلبوا على أمرهم وتولّى الخلافة بنو « العباس » ، وأمعنوا في بنى « أمية » قتلاً ...

ففرّ « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك » إلى الأندلس ، ودخلها سنة (١٣٨ هـ) ؛ وعُرف بـ « عبد الرحمن الداخل » ولُقّب بـ « صقر قریش » ، فكان صاحب آمال كبار ، وتمّ له أن أصبح أمير البلاد ، عوضاً عن أمرائها من قبل العباسيين ؛ وسار إلى « قرطبة » واستولى عليها ، وبايعته البلاد أميراً ، وشاد مُلكاً لبنى « أمية » في الأندلس .

وكان يدعو أولاً للخليفة « المنصور » العباسي ، ويخطب باسمه على المنابر ، وهو الذى لقّبه بـ « صقر قریش » .

فلما توطّد سلطانه قطع الدعوة له ، وأسقط اسمه من الخطبة ، واستمرّ فى الحُكم إلى أن مات سنة (١٧٣) هـ ، فتولى الإمارة بعده ابنه « هشام » .

وتتابع ولاة بنى « أمية » على الأندلس — إسبانيا — والبرتغال — إلى أن انتهى أمرهم سنة (٤٢٨) هـ .

الاستقلال :

وحدّث فى أيام « عبد الرحمن الناصر » سنة (٣١٧) هـ ، أن أعلن خلافته فى الأندلس ، وذلك بمنشور أرسله إلى جميع الجهات ،

وتسمّى بـ « أمير المؤمنين » ، وضربت باسمه التّقود ، وعُرف من جاء بعده من بنى « أميّة » باسم (الخليفة) .

وقد انتشر في الأندلس العُمران أيام بنى « أميّة » ، ونشطت الحركة الفكرية ، وكثر العلماء والشعراء والأدباء ...

وكانت لحكومتهم قوّة مرهوبة حتى انتهى أمر البلاد إلى تفرّق الجماعة وانقسامها ، وذلك بسبب استكثار الأمويين في الأندلس من عُصر البربر الذين شايعوهم وأيدوهم وساعدوهم على بنى « العباس » ، واستكثارهم أيضاً من شراء الممالك الصّقالبة والأترك وغيرهم ؛ لاسيّما في أيام « عبد الرحمن الناصر » ، حتى أصبحت لهم الكلمة المطلقة والنافذة في البلاد ، وانتقل إلى أيديهم الحكم الفعلى .

وكانت نفوس كثيرٍ منهم تتحدّث في قراراتها وأعماقها بتخطّى الرقاب ، والتجاوز ، وطرق كل باب للوصول إلى سدّة الحكم وكُرسى السلطان .

ولم يكن يقعد بهم عنها إلّا ما كان يُحيطها من رُفح مرفوع ، وسيفٍ مسلول ، وعظمة قائمة ، وسلطانٍ قدّمه في الأرض ورأسه في السماء .

وعلى كل حال ... فقد كان لهم التصرف المطلق في شؤون الدولة الداخلية .

الدويلات :

ولقد خالف الأمويّون في الأندلس آباءهم في دمشق ، في محافظتهم على عصبيّتهم العربية ، فضعفت بذلك شوكة العرب ، ونقموا

على السلطان ؛ ومازالوا يترقبون الفرص للخروج عليهم ، حتى قام « ابن أبي عامر » — المنصور — وزير الحاكم (ابن (الناصر) ؛ وكان من العرب المنتصرين لعصبيتهم ، فأخذ بدهائه وذكائه يوسع الهوة بين العناصر المتغلبة ، من صقالبة وأتراك وبربر ، ثم بالإيقاع بهم شيئاً فشيئاً . وكان في أثناء ذلك يَسْتَقْدِم رجالاً من بربر المغرب من قبيلتي : « زناتة » و « مَصْمُودَة » وغيرهم ، وكان يُؤَلِّمهم مناصب الدولة ، حتى إذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهم ... أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلُّون بالأطراف .

وأول من بدأ منهم بالاستقلال :

« بنو عبّاد » في « إشبيلية » ، ثم بنو « زيري » في « غرناطة » ، وبنو « الأفطس » في « بطليوس » ، ثم بنو « ذى النون » في « طُلَيْطِلَة » ، ثم بنو « عامر » في « بَلَنْسِيَة » ، ثم بنو « هود » في « سَرْقُسْطَة » ، وبعيت « قرطبة » في يد بنى « حمود » ... ثم بنى « جَهْوَر » .

ومازالوا حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال ، ثم المرابطون من الجنوب .

وأخذ ملوك وأمراء الطوائف يُغيّر الواحد منهم على مايبدا الآخر طمعاً ، فكان ذلك سبباً في ضَعْفِهِم حتى اضطُروا إلى دفع الجزية إلى « ألفونس » — الأدفونش — ؛ ولأقوا من مسيحيي الإسبان الذل والهوان ، وصَغُرَ أمرهم ، وضاقَت صُدُورهم مِنْ غَدْرِ ملوك الإسبان وأمرائهم وسوء معاملتهم ، فرأوا استدعاء المرابطين من المغرب لنجدتهم ؛ وكان صاحب هذا الرأي هو « ابن عبّاد » صاحب « إشبيلية » .

المرابطون ومعركة الزلاقة

فَهَمَّ « يوسف بن تاشفين » سلطان المرابطين بالمغرب لِنَجْدَةِ مسلمي الأندلس ، وَعَبَّرَ إِلَى الجزيرة سنة (٤٤٩ هـ) . بجيوشه الجِزْزِ ، بقيادة قائده الكبير « داود بن عائشة » ؛ وتقابلت جيوش المرابطين بجيوش مسيحيي الإِسبَان قُرب « بَطْلْيُوس » .

وكان يَرَأْسُ الجيش الإِسبَانِي « أَلْفُونْسُو » ملك « قشتاله » — كاسِيل — ؛ فكانت موقعة هائلة اُنْتُصِرَ فيها المسلمون انتصاراً باهراً ، وعُرفت بموقعة : « الزَّلَاقَة » ، وهَرَبَ « أَلْفُونْسُو » وهو جريح في يده ، جَرْحاً بليغاً .

ثم اصطلح الفريقان ، وُرِفِعَ ظُلْمُ الإِسبَانِ عَن مُسْلِمِي الأندلس ، ولم يدفعوا لَهُمُ الجزية المعتادة كل سنة ، وتسمَّى « يوسف بن تاشفين » بعد واقعة « الزَّلَاقَة » باسم : « أمير المسلمين » .

وقد غنم المسلمون الشيء الكثير جداً من الأموال والأنفس في هذه الموقعة ، فتركه « ابن تاشفين » كله لأهل البلاد ، ثم ترك الأندلس عائداً إلى بلاده .

ثم عاد « ابن تاشفين » إلى الأندلس مرةً أُخرى سنة (٤٦٨ هـ) ، لأن أهلها شكوا إليه من كثرة الضرائب التي كان ملوك الطوائف يحصلونها منهم ، فخافه أولئك الملوك الصُّغَار ، واتَّفَقُوا مع ملوك وأمراء المسيحيين الإِسبَانِ عَلَيْهِ .. ، ومنعوا جيوشَهُ من أخذ المواد الغذائية والعلف ، وما يلزمها ؛ ولكنه استولى على بلادهم كلها .. !

وأصبحت كل بلاد الأندلس تحت سيطرته إلا « سرقسطة » ، فقد بقيت
لبُعدها في « بنى هود » .

الموحدون :

ومن ثمَّ أضحَّت البلاد في يد المرابطين ، وبقيت في حوزتهم وتحت
سلطانهم حتى أَقْلَ نجمهم في المغرب وزالت دولتهم ، في أواخر القرن
الخامس الهجري ، وقامت مكانها دولة الموحدين .

وقد أُرسل أمير دولة الموحِّدين ، أمير المؤمنين « عبد المؤمن بن
عليّ » إلى الأندلس جَيْشاً للفتح ، فتغلَّب على الجزء الغربي منها ، ثم
حاصر « ألمرية » فاستغاث أهلها بـ « الفونسو » ، فأرسل « محمد بن
مردنيش » على رأس جَيْشٍ خليط من المسيحيين والمسلمين ، فهزموهم
« عبد المؤمن » ، وتمَّ استيلاء الموحِّدين على الأندلس أيام ابنه
« يوسف » — أمير المؤمنين — ، فأصلح وشيَّد في « إشبيلية »
العمائر ، وبنى جامعها ، وأقام جسرها .

وآسَتمَر ابنه « المنصور » من بعده مُصلِحاً ...

وقد حارب « المنصور — يعقوب » جيوش « الفونسو » وجموعه
من ملوك وأمراء النصرانية فانتصر عليهم انتصارات باهرة في واقعة
« الكرك » الشهيرة : (ALQRCOS) ؛ وصار يفتح الحصون والبلاد
مما كان في أيديهم ... ، واستمرَّ يتقدَّم في الفتح فطلبوا إليه عَقْد
الصلح ، فهادنهم على خَمْس سنين ، وقد كان ذلك سنة
(٥٩٢ هـ) .

وكانت غنائم المسلمين شيئاً كثيراً ، عدا مَنْ قتلوهم في تلك المعارك ، حتى قيل في بعض الروايات إنَّهم بلغوا مائة ألف قتيل ؛ وباع المسلمون الأسير بدرهم لكثرتهم ، والسيف بنصف درهم ، والحصار بدرهم ، والفرس بخمسة دراهم :

ثم استولى « المنصور » بعد ذلك على « طلمنقة » ؛ ثم قصد « طليطلة » عاصمة « ألفونسو » وحاصرها ، وكاد ينزل مَنْ فيها على إرادته ، غير أنَّ أُمَّ « ألفونسو » وبناته وحرمه نزلن واستغثن بـ « المنصور » ومروءته ... ، فأكرم مثواهن وأعادهنَّ إلى مقارهنَّ مُعزَّزاتٍ مُكرَّمات ، وعاد هو إلى بلاده بالغنائم العظيمة .

[وهذه واقعة أثبتها مؤرخو الأندلس المسلمون والنصارى على حدٍّ سواء ، وهي بالضرورة تقتضى المقارنة بما فعله مسيحيو الإسبان — بعد ذلك — بنساء المسلمين وبناتهم وأطفالهم وشيوخهم من الاضطهاد والتعذيب والتَّحريق !!!]

ثم مات « المنصور — يعقوب » سنة (٥٩٥ هـ) ؛ فتولَّى ابنه « محمد الناصر » — أبو عبد الله — من بعده ؛ فقصد الأندلس سنة (٦٠٩ هـ) بجيوشٍ جراءة قدَّرها البعض بستمائة ألف مُقاتل ...

وأعجبت « الناصر » كثرة جيوشه ، فأساء معاملته أهل الأندلس ، وفَتَكَ بكثيرٍ منهم ، ويُقال بأنه فعل ذلك بإيعاز من وزيره « ابن جامع » ، الذى أراد أن تكون له وحده الكلمة العليا ، فحسير عطف الناس والمواطنين والعارفين بمسالك البلاد ومناطقها الوعرة ، ومخابئها الطبيعية ...

المجتمع الأندلسي :

وأُعلنَ (البابا) الحرب المقدسة الصليبية ضد جيوش المسلمين ...

فهرعت جيوش النصرانية من (إيطاليا) و (فرنسا) و (ألمانيا) ، واتحدت مع القوات الإسبانية ، واستعملوا ليلقاء « الناصر » في سهول « نافادو » و « تولوزا » — وهي غير « تولوز » المدينة الفرنسية — ، وهي عبارة عن قرية تقع على بُعد مائة وأربعين كيلو متراً إلى الشمال من « قرطبة » ، ويعرفها المسلمون باسم : « العقاب » لكثرة ما فيها من عقباتٍ كانت سبباً في خذلانهم وانتصار جيوش النصارى المتحدة عليهم انتصاراً كبيراً ، وتمزقت جيوش « الناصر » المتخاذلة مع أهالي البلاد .

هكذا قيل عن العقبات .. !! كذريعةٍ وسبب .

ولكن الحقيقة هي أن ضعف معنويات المسلمين ، وسوء القيادة ، وإيثارهم الدنيا على الآخرة ... كل ذلك أودى بهم .

ومات « الناصر » بعد موقعة « العقاب » ، فبايع أهل المغرب ولده « يحيى » فلجأ أخوه « المأمون » — ابن الناصر — إلى ملك « قشتالة » يستنصره على أخيه « يحيى » ، وعلى قومه الموحدين ، فتم الاتفاق بينهما على شروط ، منها : أن يعطى « المأمون » ملك « قشتالة » عشرة حصون يختارها هو ، مما في يد المسلمين ، ومما يلي بلاده ، وأن تُبنى للنصارى كنيسة في (مراکش) ؛ و قبل « المأمون » !!!

فجهز له ملك « قشتالة » جيشاً من الاسبان دَخَلَ به أرض المغرب ... ، وهناك جمع « المأمون » شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً ؛ وكان عددهم ثيفاً وأربعة آلاف نفس ، فثارت الأطراف عليه ؛ وضعف أمر الموحدين .

وأخذ الاسبان فى الاستيلاء على مُدن الأندلس واحدةً بعد الأُخرى ، فاستولوا على « قرطبة » ، ثم على جُزر « البليار » ، و« بلنسية » ؛ كما استولى أسطولهم البحرى على « سبتة » وغيرها من ثغور المغرب ، ثم استولوا على « إشبيلية » ...

ومازالوا يستولون على بلاد الاندلس وحصونه واحداً بعد واحد ، حتى لم يبق فى يد المسلمين غير « غرناطة » بقيت فى يد « بنى الأحمر » لِمَنَعَتِهَا وكثرة أهلها ، فقد كان يلجأ إليها كل أهالى البلاد التى يفتحها الاسبان ، وكانت « غرناطة » تدفع الجزية غالباً للملك « قشتالة » .

فضيحة لم يأت الدهر بمثلها :

وآسَمرَ مُلك « بنى الأحمر » قائماً فى « غرناطة » ... ، إلى أن دبّ الخلاف على المُلك بين « أبى عبد الله بن أبى الحسن » وبين عمه « الزَّغل » فانتهى بتغلُّب الإسبان على « غرناطة » سنة (١٨٩٢) هـ ؛ وكان ذلك نهاية أمر المسلمين بالأندلس .

وما يُنسبُ لابن خَزَم فى تصوير التهافت السياسى الإسلامى فى الأندلس آنذاك ، قَوْلُه : [فضيحة لم يأت الدهر بمثلها !!! أربعة رجال

كُلُّ واحدٍ منهم أمير المؤمنين !!! واحد بإشبيلية ، والثاني بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقة ، والرابع بسبّطة .

وأصبح العرب والبربر في خلافٍ مُستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى ، وفي حروب مع الأمم الإسبانية والبرتغالية [.

بذلك الانقسام والتخاذل ثم استرسالهم في ملاذهم واستسلامهم لشهواتهم ، واستنابتهم إلى الراحة ؛ ضعفت فيهم الحمية الدينية والعصبية القومية حتى ضعفت قواهم ، فكان جزاؤهم أن فقدوا الفردوس الأندلسي .

* * *

الفصل الثاني

السلطة البابوية ☐

العالم الإسلامي ☐

بداية النهاية ☐

السُّلْطَةُ البَابِيَّةُ

قُلْنَا فِيمَا سَبَقَ إِنَّ الْإِسْبَانَ قَدْ اسْتَوْلُوا عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَاحِدًا
بَعْدَ الْآخَرِ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ سِوَى « غِرْنَاطَةِ » الَّتِي كَانَ
يُحْكِمُهَا « بَنُو الْأَحْمَرِ » ، لَمَنْعَتِهَا وَكَثْرَةُ أَهْلِهَا ، ثُمَّ إِنَّ الْخِلَافَ قَدْ دَبَّ
بَيْنَ « أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ » وَبَيْنَ عَمِّهِ « الزَّعْلِ » ، مِمَّا أَدَّى إِلَى
تَغْلُبِ الْإِسْبَانَ أَيْضًا عَلَى « غِرْنَاطَةِ » ، وَانْتِهَاءِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي
الْأَنْدَلُسِ .

وبيان ذلك :

أَنَّ الْمُسْلِمِينَ رَأَوْا أَنَّ يَعْزُضُوا عَلَى « الزَّعْلِ » وَابْنَ أَخِيهِ اقْتِسَامَ
الْمَلِكِ ، وَيَسْتَقِلُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِإِدَارَةِ قِسْمٍ ، لِثَلَا يَتِمَّادَى الْعَدُوُّ فِي
انْتِهَازِ الْفُرْصِ السَّاحَةِ وَيُوقَعُ بِالْمُسْلِمِينَ .

فَخَرَجَ « الزَّعْلِ » إِلَى وَادِي « آش » ، وَاسْتَوْلَى ابْنُ أَخِيهِ « أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ » عَلَى « غِرْنَاطَةِ » — وَكَانَ حَلِيفًا لِلْإِسْبَانِ الْقَبْشَتَالِيِّينَ .

إِلَّا أَنَّ الْإِسْبَانَ لَمْ يَكْفُوا عَنْ بَثِّ دَسَائِسِهِمْ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى
« الزَّعْلِ » مَنْ يَزِيدُ نَارَ الْفِتْنَةِ أَوَّارًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ أَخِيهِ ، فَسَارَ مَعَهُمْ
لِحَرْبِهِ ، وَكَانَ « فَرْدِينَانْدُ » غَاضِبًا عَلَيْهِ وَحَاقِدًا لِأَنَّهُ لَمْ يَسَلِّمْ لَهُ حِصْنَ
الْحَمْرَاءِ .

وَسَلَّطُوا عَلَى « الزَّعْلِ » رَجُلًا مِنْ بَنِي الْأَحْمَرِ اسْمُهُ « يَحْيَى » —
كَانَ قَدْ تَنَصَّرَ وَيَعِيشُ فِي « إِشْبِيلِيَّةِ » — فَزَيَّنَ لَهُ التَّنَازُلَ عَنْ وَادِي

« آش » لـ « فرديناند » نظير مالٍ كثير والذهاب إلى بلاد المغرب ... ،
فقبل وقبض المال وذهب إلى « فاس » الذى نقم عليه سلطانها لمؤازرته
النصارى ، فصادر أمواله ، وسَمَلَ عينيه وسجنه حتى مات .

[و « فرديناند » المذكور آنفاً هو « فرديناند » — الثاني — ملك
« نافارا » و « أراغون » ، الذى تزوّج من « إيزابيلا » ملكة
« قشتالة » .]

أما « أبو عبد الله محمد » ابن أجي « الرّغل » فمازال يدفع
جيوش الأعداء عن « غرناطة » ، ويستमित فى الدفاع حتى أعلنه أهلها
بعجزهم ، وأنهم يقبلون شروط الصّلح التى عرضها « فرديناند »
و « إيزابيلا » ؛ وكان (البابا) فى كل ذلك مُباركاً ومُشجعاً ، ولأول مرّة
فى تاريخ الصراع الإسلامى النصرانى فى الأندلس ...

فأضطرَّ « أبو عبد الله » أن يُسلم مفاتيح « غرناطة » إلى
« فرديناند » فى الثانى من ربيع الأوّل سنة (٨٩٧ هـ) ، وهذا اليوم هو
آخر أيّام الحكام المسلمين فى الأندلس الذى استمر زهاء ثمانية قرون ،
منذ عام (٩٢ هـ) .

وها جرَّ « أبو عبد الله » إلى المغرب وأقام فى « فاس » ، وعاش
فيها واحداً كعامة الشعب ، إلى أن وافاه الأجل عام (٩٤٠ هـ) ؛ وبقي
نسله فيها حتى سنة (١٠٣٧ هـ) ، يُصرف إليهم من أوقاف المسلمين
المرصودة على الفقراء والمساكين .

* * *

العالم الإسلامي !!

وتسألني عزيزي القارئ :

أين كان العالم الإسلامي بقضه وقضيضه والمسلمون في الأندلس
يَنْتَهُونَ على هذه الصورة ... الفاجعة ؟؟

تقول رواية التاريخ في الإجابة على هذا السؤال إن مِحْنَة مسلمي
« غرناطة » كانت أيام السلطان « بايزيد » — الثاني — العثماني ، فاتفق
هو و « قايتباي » سلطان مصر حينئذ على مساعدتهم ، فِيرْسَل
« بايزيد » أسطولاً إلى شواطئ إسبانيا ، كما يُرْسَل « قايتباي » جَيْشاً
من جهة إفريقية ...

وبينما الاستعدادات جارية لتنفيذ الخطة ، شُغِل « بايزيد » بفتنة
داخلية بين أولاده : « كركود » و « أحمد » و « سليم » ، ووقوع الحرب
بينهم ، فاضطر « بايزيد » للتنازل عن الملك إلى أبنه « سليم » .

أما « قايتباي » فقد أرسل له « فرديناند » و « إيزابيلا » سفيراً
يُسَمَّى السَّنُور « بطره مارتير » ، فراح بمهارته يقنع « قايتباي » بالعدول
عن إرسال جيشه لمساعدة المسلمين ؛ ونجح « بطره مارتير » في
مسعاها .

وأكثفى « بايزيد » و « قايتباي » بإرسال الرسائل والكُتُب إلى
« فرديناند » و « إيزابيلا » ، وإلى (البابا) ، وإلى ملك « نابولي »
طالبين فيها — بالطرق الدبلوماسية — عدم إرهاب مسلمي الأندلس
— « غرناطة » — ؛ وكأنما هذه الكُتُب كانت — فيما بعد — لتأجيج

نار التعصّب في قلب « فرديناند » و « ايزابيلا » وبمباركة (البابا) ، ضدّ المسلمين .

بداية النهاية :

ولم يكتف الإسبان بالاستيلاء على الأندلس ، واستعادتها من أيدي المسلمين ، وطردّهم من آخر معاقلهم في « غرناطة » ، بل سوّلت لهم أنفسهم ومطامعهم أن تمتد أيديهم إلى شواطئ المغرب العربي ، فحاولوا في بعض السواحل التونسية والجزائرية والمغربية أن يجعلوها لهم قدماً توطئة لما هو أكبر وأعظم .

لكن ...

كان لأربعة أخوة من تجّار الأتراك العثمانيين بعض السفن ، فكانت مراكب الإسبان تعبث بها ، فاتفق هؤلاء الأربعة مع سلطان تونس « محمد الحفصي » على أن يعطيهم ثغراً من ثغوره يلجئون إليه بسفنهم ويتعقبون سفن الاسبانيين ، ويمنعوهم من التناول على بلاده ، ويعطوه في مقابل ذلك خمس ما يغنمونه .

وكان « خضر » — أحد هؤلاء الاخوة — رجلاً في منتهى الشجاعة ، ويعرفه الإفرنج بـ « ذى اللحية الحمراء » [بارياروسا] ؛ وكانت له معرفة تامّة بالطرق البحريّة ، فأخذ يتعقب سفن الاسبانيين حتى أخذ منهم « بجاية » ، ثم استردّ ثغر « الجزائر » سنة (٩٢٢) هـ ، وبعث بمفاتيحها ، مع هدية نفيسة ، إلى السلطان العثماني « سليم الأول » فعينه السلطان وزيراً على الجزائر ، وبعث إليه بأسطول من أساطيله ، مع فرقة من العساكر العثمانية ، فاستولى على كل البلاد الجزائرية بهذه القوة .

وأخذ أسطوله يجوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، فكان يلقي الرعب في قلوب الأوروبيين ، ثم ساروا إلى سواحل إسبانيا وثورها وأنقذوا كثيراً من المسلمين الذين كان الاسبان يضطهدونهم أبشع الاضطهاد وأفظعه ، ويذيقونهم ألوان العذاب ، فانضم إلى أسطوله كثير منهم ، وأبلوا بلاءً حسناً في حروبهم ومصادماتهم مع الأسطول الإسباني الذي كان يقوده أميرهم البحري : « أندريا دوريا » .

ومن ثم عُرف « خضر » — أو : « بارباروسا » باسم « خير الدين باشا » ، وعينه السلطان « سليمان القانوني » أمير البحرية الأكبر للأسطول العثماني ؛ واشتهرت الدولة العثمانية في أيامه بحروبها وانتصاراتها على جميع أساطيل أوروبا مجتمعة .

وبلّاه لتغلّبت إسبانيا على جميع الشواطئ المغربية ودولها أيام الملك « شارلكان » الذي جمع كلمة أوروبا على حرب المسلمين برّاً وبحراً ... ، لكن السلطان « سليمان » انتصر عليهم في البرّ ، و « خير الدين باشا » في البحر ، وتمّ للعثمانيين الاستيلاء على « طرابلس — الغرب » سنة (٩٥٠ هـ) ، ثم على تونس سنة (٩٨١ هـ) ؛ وبذلك تم لهم الاستيلاء على معظم الشمال الإفريقي ، وأصبح أسطولهم سيّد البحر الأبيض المتوسط .

ويشهد التاريخ أن الأتراك العثمانيين مع ماوصلوا إليه من بسط النفوذ والسلطان لم يُكرهوا أهالي البلاد المفتوحة على اعتناق الاسلام ، وقد كانوا قادرين على ذلك ... ، على عكس ما فعله « فرديناند » و « إيزابيلا » اللذين قاما بحملة اضطهاد وحشية في وجه مسلمي الأندلس ، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، مستخدمين كل ألوان العذاب كي يخرجوا من دينهم !!!

الفصل الثالث

□ شروط تسليم « غوناطة » .

المراحل : التنصير ، التهجير ، التدجين والاسترقاق

ديوان التفتيش ، محاكم التفتيش ، السجن والتعذيب ، الحرق .

□ الأعداد بالأرقام ..

□ حملة الاضطهاد الوحشية في إسبانيا والبرتغال .

□ المباركة الإلهية أو بركة البابا المقدسة .



شروط تسليم غرناطة !!

كانت شروط تسليم « غرناطة » — على يد « أبى عبد الله » — سبعة وستين (٦٧) شرطاً ؛ أمّنوا فيها على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأغراضهم وأملاكهم وحريّتهم ، وإقامة شعائهم ، واحترام مساجدهم ومعابدهم وفك أسراهم ، وإجازة من يريد الهجرة منهم إلى برّ الفدوة [المغرب] ، وإعفائهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة ...

وغير ذلك من الشروط التى لم ينفذ منها ولا شرط واحد بعد الاستيلاء على « غرناطة » — مباشرة — ، لتمادى الاسبانيين فى تعصّبهم الحاقد ؛ ولقد أثّروا ما أثّروا باسم « المسيح » — عليه السلام — !!!

ولننظر إلى أنظمتهم الكهنوتية التى رتبوها لاضطهاد المسلمين وأسموها باسماء مختلفة متعدّدة ، كلها مستوحاة من خلفيّة دينيّة متعصّبة ذميّة؛

١ — (فرسان الهيكل)

٢ — (قلعة رياح) .

٣ — نظام (مارى يعقوب) .

٤ — نظام (مارى جرجس) .

٥ — نظام (سيدات الفأس) .

وكان خاصاً بالنساء ... — حتى النساء — !!!

ومما زاد في تعصّبهم ما كان يُصدّره البابوات من المنشورات ضدّ المسلمين ، لاسيّما بعد أن فتح الأتراك العثمانيون « القسطنطينية » — (استامبول) — سنة (٨٥٧ هـ) .

ولمّا ثار جماعة من (البيّانيين) — وهم من مسلمي الأندلس كانوا في « غرناطة » ، عرفوا بعزّتهم ونحوّتهم ، وفكّوا ببعض الحكام — قمع الاسبان تلك الثورة بكلّ قسوة وغلظة .

وفي سنة (١٥٦٣ م) ، ثار « فرج بن فرج » من سلالة « بنى سراج » ولجأ إلى جبال « البشرات » وتبعه عدد غير قليل من أهل « غرناطة » ؛ وكان من بينهم : « هادونثندو دوفلور » — وكان من نسل خلفاء « قرطبة » ، فنادوا به سلطاناً عليهم باسم : « محمد بن أمية » ، وعمت الثورة كل نواحي جبال « البشرات » ، واستمرّت الثورة سنتين ، وهي في منتهى شدّتها ، وأبلى فيها الثوار بلاءً عظيماً ، ومات فيها خلق كثير من الطرفين ...

ثم خلع المسلمون « محمد بن أمية » لهواديته .. ، وولّوا أمرهم أحد زعمائهم المعروف ببسالته وشجاعته وإقدامه ، واسمه « عبد الله بن أبيه » .

غلبة : وظل المسلمون في ثورتهم حتى غلبتهم كثرة الاسبان في نهاية الأمر ، وشتّوا جموعهم ، وأعملوا فيهم القتل والتحقيق والنكال ، وعلّقوا رأس « عبد الله » على أحد أبواب « قرطبة » ؛ وبقيت الرأس معلّقة عليها ثلاثين سنة !!!

واشتدّ الإسبان في مطاردة المسلمين على ما كان بهم من شدّة في تعصّبهم مما دعاهم للثورة عليهم .

المعذبون :

ويقدر بعض المؤرخين عدد مَنْ عُدِّبَ من المسلمين بعد سقوط « غرناطة » بثلاثة ملايين نسمة ، قُتل من قُتل وحُرق مَنْ حُرق ؛ ونجا بنفسه من نجا بما معهم من صناعةٍ ومعرفةٍ كبرى بالزراعة والتجارة ، وخربت « غرناطة » و ... الأندلس ، وأوحشت من أهلها

أمران أحلاهما مر !

واضطر من بقى من المسلمين فى الأندلس ممن لم يقدروا أن يهاجروا إلى بلاد إسلامية تحميهم أن ينتصروا ، وأن يتدجنوا وعُرفوا بـ « المدجنين : Mudejares ؛ ومع ذلك أسى الظن بهم وعوملوا أسوأ معاملته .

بذور العلم والفن من جديد !

أما من هاجر إلى بلاد المغرب فحملوا معهم علومهم وفنونهم وصناعاتهم ، فنهضت بهم الزراعة فى « تونس » ، وظهرت الصناعة ، ونشطت أوجه الحضارة ، وعمرت الديار ، وشيدوا الأبنية المختلفة على الطراز الأندلسى ، وعلى أروع شكل هندسى ، ولاتزال إلى الآن كثير من الاسماء الأندلسية معروفة بين الأسر التونسية .

أما من اضطر إلى البقاء فى اسبانيا والبرتغال من رجال الفن من المسلمين واليهود فقد عوملوا معاملةً يأنف منها العبيد الأرقاء — ، واضطروهم الاسبان لنحت التماثيل فى الكنائس وبنائها وتجديد بعض الآثار الفنية الإسلامية مما لا يمكن لغيرهم عمله ، وقد بقى الكثير من آثارهم ميملاً دور الآثار بإسبانيا من نحاس مكفت بالذهب والفضة والعاج المنقوش .

المغاربة السود :

وبقيت في البلاد بقيّة مِمَّنْ تَنَصَّرَ يسمونهم : « مُورسك :
Mauresque » (أى : المغاربة السُّود) اندمجوا في الاسبان والبرتغال
وتكلموا لُغَتَهُمْ ، ولكنهم حافظوا على لغتهم العربية من جهةٍ أخرى ،
فكتبوها بالأحرف اللاتينية ، وتسمّى : « الخميادو » ؛ ولا تزال فيها
كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف اللاتينية .

وقد أصبحت لغةً أخرى جديدة غير العربية لما دخلها من
التحريف والتصحيف ، كشأن اللغة المصرية القديمة حين كتبت بحروف
إغريقية ، ودخلها ما دخلها من التغير ...

* * *

بؤر جرثومية في جسم الأمة الإسلامية

ولقد كان للانقسام الذي حدث في جسم الأمة الإسلامية الأندلسية بين قبائل العرب أولاً ، وبين العرب والبربر وغيرهم من العناصر الأخرى ، وبين أفراد الأسر المالكة ، وتهالكهم على الملذات والشهوات ، وغير ذلك من عوامل الضعف هي التي مكّنت لجرائم الإسبان التي لم يطهرها المسلمون من جزيرة « إيبريا » حين ملكوها ، كما كان رأى « طارق بن زياد » أن يفعل بمن بقي من سكانها الأصليين وأن تكون جبال « البيرنية » كلها في يد المسلمين حتى يأمنوا شرّ تلك البؤر الجرثومية ، وهي قليلة ، سكنت الشمال الغربى من إسبانيا عند خليج « غاسكونيا » على نهر « دافا » ؛ كان يسميه المسلمون بالصخرة ، والاسبانيون يسمونها « كوكا دونجا » لجأ إليه فلول من « القوط » مع من بقى منهم واندمج في (الباشكنس) — الباسك — ؛ وانتخبوا رجلاً منهم من سلالة (لذريق) — رودريك — آخر ملوك (القوط) اسمه : (بلايو) ليكون أميراً عليهم .

وكانت هذه الفلول تَعْتَصِم بما في تلك الجهة من الحصون والمعازل الطبيعية ، ويستمتتون فيها دفاعاً عن وجودهم وحياتهم ؛ وإن كانوا يتظاهرون أحياناً بالطاعة والإخلاص للمسلمين ، وقد يرشدونهم إلى عورات الفرنجة فيما وراء جبال (البيرنية) ، بل ويساعدونهم عليهم ، وكانوا يدفعون بذلك عنهم الفرنجة من الشمال ، والمسلمين من الجنوب .

وبقى أمرهم على هذا المنوال حتى كَوَّنوا لهم دولة سمّوها « ليون » ، أقاموا فيها ملكاً منهم ؛ ثم أخذت دولتهم هذه في الاتساع إلى

الجنوب الشرقى حتى عُرفت باسم : (قشتالة) ، فقام أمير منهم برعايتها ، وكانت (قشتالة) تمتد حدودها شرقاً ببطء حتى ظهرت مملكة ثالثة اسمها : (نافارا) .

ثم ظهرت دولة « أراغون » فى الشمال الشرقى للبلاد .

وأخذت تلك الدول الأربع تدسّ للمسلمين دائماً بواسطة ولاية الأطراف والحدود ويوقعون بينهم ، فيُعْلِنُ الواحد منهم الحرب على الآخر ، ويُغيرون على حدود بعضهم البعض ، فتضطرب الأحوال ، وقد يتعدى الاعتداء الطرفين ، فيسير الأمير أو الخليفة جيشاً لتهدئة الحدود والأطراف ، وقد ينتهز مسيحيو الشمال هذه الفرص للإغارة واقتطاع الأرض من الأطراف والحصون فى الحدود والقلاع .

وهكذا لم تتمتع البلاد بالطمأنينة والسلام لوجود تلك العوامل الهدامة الدسّاسة من منتصف القرن الثانى للهجرة إلى منتصف القرن الخامس إلا قليلاً .

وكل هذا من كيد ملوك « قشتالة » و« ليون » و« أراغون » ، إلا إذا وقعت بين هؤلاء الواقعة فيضعف أمرهم حينئذٍ ويضطرون لدفع الجزية للخلفاء أو لأمراء المسلمين ، كما حدث أيام « عبد الرحمن الناصر » ؛ إلى أن انتهى أمر الأمويين بذهاب ملكهم ؛ ثم كان ملوك الطوائف الضعفاء المساكين ، بينما كان أهل أشمال يزحفون جنوباً ويحتلون البلاد من المسلمين ويملكونها حتى قضى الأمر وتسلموا مفاتيح « غرناطة » ، ولم يبق للمسلمين فى ذلك المُلْك الكثير سوى الذكرى المؤلمة ...

المراسيم الملكية لاضطهاد المسلمين :

أصدر عاهلاً إسبانيا « فرديناند » و« إيزابيلا » مجموعة من المراسيم متتابعة زمنياً تقضى كلها بأضطهاد المسلمين ؛ وقد نُقلت عن المجاميع الرسمية الملكية ، ونُقل هنا مُختصراً لبعضها :

(أ) في يوم الثلاثاء ، العشرين (٢٠) من شهر يوليو (تموز) سنة (١٥٠١ م) ؛ [الموافق الرابع (٤) من المحرم سنة (٩٠٧ هـ) ، صدر أمر من الملكين بمنع وجود المسلمين في مملكة « غرناطة » ، وقد اختارهما (أى الملكين) الله لتطهيرها من (الكفرة) !!! .

كما أنه يحظر عليهم — أى المسلمين — أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم ، ويحظر عليهم أيضاً الاتصال بمن تنصروا لئلا يفسد عليهم إيمانهم بمخالطتهم ، وكل من خالف تلك الأوامر فجزأؤه الموت وتُصادر أملاكه !!!

(ب) في يوم الثلاثاء الثاني عشر (١٢) من شهر فبراير (شباط) سنة (١٥٠٢ م) ، الموافق الثالث عشر (١٣) من شهر رمضان سنة (٩٠٨ هـ) ؛ صدر أمر ملكي آخر يحتم على كل مسلم حرٍّ يبلغ الرابعة عشرة من عمره إن كان ذكراً ، والثانية عشرة من سنّها ، إن كانت أنثى ، أن يغادر مملكة « غرناطة » قبل أول شهر (مايو) — آيار — التالي .

على أنه يُسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف في ماله وأملاكه على أن لا يكون الخروج إلى شمال إفريقيا التي كانت في حرب قائمة مع إسبانيا في ذلك الحين ، وليكن الخروج إلى بلادٍ أخرى .

وكل مخالفة للأمر تجعل صاحبها عُرضة للموت والمصادرة ، وتمييز الأرقاء من الأحرار تقيّد أرجلهم بقيود من حديد متى عُرفوا .

ولوحظ أن كثيراً من مُتَنَصِّرة العرب ، وهم الذين تظاهروا باعتناق النصرانية كانوا يبيعون أملاكهم ويفرون إلى إفريقية ، فصدر أمر جديد :

(ج) في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر (أيلول) سنة (١٥٠٢) م ، الموافق التاسع عشر (١٩) من شهر ربيع الأول سنة (٩٠٩) هـ ؛ صدر أمر ملكي يحظر على الناس التصرف في أملاكهم قبل مضيّ عامين ، كما يحظر عليهم أن يغادروا مملكة « قشتالة » إلا إلى مملكتي : « الأراغون » و « البرتغال » .

* * *

سياسة الباباوات والقساوسة والملوك

إبادة ومحو

ويجب أن لايعزب عن البال تقرير حقيقة ماكان يبغيه الباباوات والقساوسة وملوك إسبانيا — وماجاورها — ، وهو أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة بأن المسلم لايرضى بدينه بديلاً ، فكانت سياستهم ترمى إلى الإبادة ومحو الأثر ؛ وقد أصدروا من الأوامر ما أصدروا وأقاموا المحاكم الفظيعة ، وصادروا ونهبوا ، وهتكوا الأعراض ، وأذّلّوا ، وخسفوا الأرض بمن عليها من غير معتنقى (الكتلكة) بشتى الطرق وضروب التفنن في التعذيب والنكال ؛

الفرار ولا الردة !!

فمن تنصير غير الكاثوليك ، مراقبة أولئك المنتصرة مراقبة الأباسة والشياطين ، واختلاف التّهم وترتيب المؤامرات السّرية والعلنية لمحاربة من اعتنق الكتلكة ، أو تظاهر باعتناقها .

(فمثلاً : « الكاردينال » — « كمينس » أراد أن ينصّر كل المسلمين واليهود ؛ ويقال إنّه أرغم خمسين ألف مُسلم على أن يعتنقوا مذهبه .

ولكن هذا لم يُغنهم قليلاً ، ولم يقسرهم ، ولم يمنعه أن يأتي بضروب العسف لهم والتّفنن بتعذيبهم .

والملك « فرديناند » الذى كان يتظاهر بالمحافظة على اليهود !!! قد رأى فى أواخر أيامه أن آلافاً مؤلفة قد أُجبروا على اعتناق النّصرانية ، وأن ألوفاً آخرين قد آثروا فقْدان كل شىء من حُطام الدنيا على الرّدة ، فتركوا

أوطانهم وتفرّقوا في ثغور افريقية ، ولم يَبْقَ في « قشتالة » إلا المنتصرة
فحسب .

وجاء بعد « الكاردينال كمنيس » — [الدُّون : ألفونسو
مابريك] ، وأصْبَحَ كبير المفتشين ، وكان شديد التحمُّس لمقاومة ما كان
يُسَمَّى بـ (الكُفْر) في تلك العصور ، ومعنى ذلك : الاعتقاد بغير
(الكُتْلَكة) ، أو المروق عنها .

وكان يأخذ خصومه بأقلِّ شبهة ، سواء كان من منتصرة
المسلمين ، أو ممَّن تنصَّر من اليهود ، أو ممَّن كان على مذهب
« مارتِن لُوتِر » — الأنجليكاني — ، أو حتى كان من المفكرين الأحرار ،
أو غير ذلك ؛ ولم يكن لأحد من هؤلاء جزاء إلا الإعدام ، تعذيباً أو
حرَقاً .

إن كل مسلم تنصَّر يُعَدُّ كأنه قد ارتدَّ إلى الاسلام إذا ما مَدَح دين
محمد — ﷺ — ؛ أو قال : إن (يسوع المسيح) ليس بإله ولم يكن
إلا رسولاً ، أو قال بأن صفات « مَرِيَم » العذراء ، أو أن اسمها لاتليق
بأمِّه ... ، وعلى هذا يجب على كل مسيحي أن يُبلِّغ ما يعلم من تلك
الأمر ، كما أنه يجب عليه أيضاً أن يبلِّغ عما يكون قد سمعه أو رآه من
منتصرة المسلمين إذا هم زاولوا بعض العادات والتقاليد الإسلامية المرعية ،
كأن يأكل اللحم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك يُباح له ؛ أو إذا احتفل
منتصراً ، بيوم الجمعة ، بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو أن
يولِّي وجهه شطر الشرق قائلاً : بِسْمِ اللَّهِ ... ، أو إذا أوْثَقَ أرجل
الحيوان قبل ذبحه ، أو رفض أكل لحم ما لم يُذبح ، أو ماذبحته امرأة ، أو
خَتَنَ أولاده ، أو سمَّاهم بأسماء عربية ، أو أعرب عن أمنيته من اتباع

تلك السنة ، أو إذا قال : بأنه يجب ألاّ يعتقد إنسان إلا بالله وحده ، وأن « محمداً » عبده ورسوله ، أو إذا أقسم بما في القرآن ، أو إذا صام شهر رمضان وتصدّق خلاله ، وكان لا يأكل ولا يشرب إلاّ عند الغروب ، أو إذا تسحّر ليلاً أو قام للوضوء ، أو إذا صلّى وولّى وجهه شطر المشرق ، أو إذا ركع أو سجد وتلا شيئاً من القرآن ، أو إذا تزوّج وفقاً لما توجبه الشريعة الاسلامية ، أو إذا أنشد أغاني عربية ، أو أقام حفلات للرقص أو للموسيقى العربية ، أو إذا اتّبع قواعد « محمد » الخمس [يعنى أركان الاسلام] ، أو إذا لمسَ بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لتلك القواعد ، أو إذا غسلَ الموتى وكفّنهم في ثياب جديدة ، أو دفنهم في أرضٍ بكرٍ ، أو وضعهم في قبور من الحجر مضطجعين على جنوبهم وأسند رؤوسهم إلى حجارةٍ ، أو إذا غطّى قبورهم بالعصون الخضراء ، أو استغاث بـ « محمد » — صلى الله عليه وآله — عند الحاجة [وليس ذلك من الإسلام ، لأن الاستغاثة لا تكون إلا بالله سبحانه وتعالى وحده] أو قال : إنه نبيّ ورسول أو إذا قال بأن الكعبة هي أوّل بيت من بيوت الله ، أو إذا قال : بأنه لم يتنصّر ، وهو لا يؤمن بالدين المقدّس [المسيحيّة] ؛ أو قال بأن آباءه وأجداده قد فازوا برضى الله ، وقد ماتوا على الإسلام !!!

متابعة حتى في خارج الحدود

ونصّت تلك الأوامر بأنه يجب على المسيحيين أن يُبلّغوا ماعرفوه عن المنتصرين إذا هم هاجروا إلى إفريقية أو غيرها من البلاد ليرجعوا إليهم دينهم القديم وأنّهم ارتدّوا عن (كُثْلِكَتْهُمْ) .

ولقد رفع (المنتصرة) ظلامتهم إلى « ماثريك » في « برغش » عام (١٥٢٢ م) ، الموافق سنة (٩٣٠ هـ) يذكرونه بما قطع لهم من عهود ، ومنها أن لا يُقدّم أحدٌ منهم إلى (محاكم التفتيش) إلاّ لتهم خطيرة .

ويُقال : بأن (المجلس الأعلى للتفتيش) وافق — أو أظهر الموافقة — على وجهة نظرهم ، وأمر بالإفراج عن متهمين لم تثبت عليهم أية تهمةٍ ثبوتاً تاماً ؟!!! .

والواقع أن هذا الأمر هو تحصيل حاصل ، لأنه بالضرورة يجب الإفراج عن المتهم إذا لم تثبت ضده تهمة .

نُفذت تلك الأوامر ، وطُبِّقت تلك القوانين على المسلمين وعلى (المنتصرة) بمملكة « قشتالة » — مملكة « إيزابيلا » — ؛ وأمن « ماثريك » مُسلمي مملكة « الأراغون » إلى حين ، لأن طبقة الأشراف ، وأرباب الضياع والمزارع فيها رأوا في تنفيذ تلك القوانين خراب تلك الضياع وتعريض أملاكهم ومواردهم للخسران ، وقد لمحوا للملك بذلك .

فتعهّد الملكان « فرديناند » و « إيزابيلا » بعدم التعرض للمسلمين ، كما تعهّد الملك « شارل الخامس » بذلك — أيضاً — سنة (١٥١٩ م) ، الموافق (٩٢٥ هـ) لمجلس النواب .

اضطهاد وإذلال :

ثم قامت حرب أهلية بمقاطعة « بلنسية » بين جماعة الأشراف والعامّة من الناس ، فرأى هؤلاء أن يعمدوا إلى اضطهاد المسلمين الذين

كانوا في كنف النبلاء الأشراف ، وتحت رعايتهم ، نكاية فيهم . وكانوا يعلمون أن المسلمين هم أعوان الأشراف ، وعليهم يعتمد هؤلاء في أعمالهم وفي مزارعهم ، فأضطهد العامة المسلمين أينما كانوا وطاردوهم وأجبروهم على اعتناق المسيحية ، وقد تنصّر بضعة آلاف منهم خشية العذاب المقيم والاضطهاد السائد .

جعل المساجد كنائس :

وهدأت الفتنة ، ورجع جلّ المنتصرين إلى حظيرة الاسلام ، وهاجر آلاف منهم إلى الجزائر ؛ فاتخذ الملك ذلك ذريعة لإظهار غضبه وإنزال نقمته على الباقيين في مملكته وأخذ على نفسه أن لا يدع مسلماً في بلده ، ورجا (البابا) أن يجعله في حلّ من نقض عهده الذي كان قد أخذه أن لا يتعرّض للمسلمين .

فرسَم (البابا) في الثاني عشر من شهر مارس (آذار) عام (١٥٢٤ م) ، الموافق السادس (٦) من جمادى الأولى سنة (٩٢٠ هـ) ؛ بحث رجال التفتيش (قضاته ومفتشيه) بأن يعجلوا بإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية (الكاثوليكية) ؛ ومن أي من المسلمين فعلية أن يخرج من إسبانيا ، وأمهلوهم مُدَّة ، فمن لم يعتنق المسيحية أثناءها كان جزاؤه أن يُصبح رقيقاً عبداً طوال حياته !!!

وأمر (البابا) في ختام مرسومه بجعل كل المساجد هناك كنائس .

وعقد « شارل الخامس » اجتماعاً حضره أعضاء مجلسي « قشتالة » و « الأراغون » والقساوسة والأخبار والمفتشين والقادة .

ونظر الحاضرون فيما يجب عمله بعد صدور أمر (البابا)
الآخر ، هل يُطبَّق على من اعتنق منهم المسيحية ، وهو مكرَّة من قبل ،
أم يُطبَّق عليهم من جديد ؟

وبعد أن تشاوروا في الأمر ملياً أجمعوا على أن مسيحية المنتصرين
صحيحة لاشكَّ فيها ، وأنه يجب على كل المنتصرين أن لا يرحوا إسبانيا
لأنهم مسيحيون ، وأجبروا على تعميد أولادهم ، كما أنهم أمروا بالذهاب
إلى أكبر كنيسة في « بلنسية » لِيُطَهَّرُوا مما كانوا عليه من الكفر
والارتداد !!!

ولما عادوا من الكنيسة علموا بأن من يرجع عن مسيحيته يُحَكَّم
عليه بالاعدام وتصادر أمواله .

ومن ذلك الحين حُوِّلَتْ كل المساجد إلى كنائس وحرم عليها أن
يُتلى فيها اسم الله ، وأن تُقام فيها صلاة إسلامية !!!

ولم يجد المسلمون مناصاً من أن يلجئوا إلى الجبال يختمون في
ذراها ، وكهوفها ومغاورها ، ويتواروا زمناً .

وقد أصدر الملك — « فرديناند » — أمراً بالعفو عنهم ، وكتب
إلى زعماء المسلمين في « بلنسية » يحضُّهم على اعتناق المسيحية ، وأنهم
إن فعلوا ذلك كانت لهم منه الحماية والعون ، وتكون لهم كافة الحقوق
التي للمسيحيين ، كما أكَّد لهم أنه سيَفِي لهم ويحفظ عهده معهم ،
مهما كان الأمر .

إلا أن سلسلة الاضطهادات لم تنقطع ، فقد صَدَرَ أمر إلى
منتصرة المسلمين في اليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين

الأول) سنة (١٥٢٥ م ، الموافق الرابع (٤) من المحرم سنة (٩٣٢ هـ) ؛ يحظر عليهم بيع الذهب والفضة والحرير والحلى والأحجار الثمينة والمواشى ، وأشياء أخرى ذكرت في المرسوم .

ثم أعقب ذلك أمر صدر في الثامن عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) من نفس العام ، الموافق الثاني (٢) من صفر ، يوجب على المسيحيين أن يبلغوا (الديوان المقدس) كل ما يأتيه المنتصرون من ردة أو مخالفة للمسيحية ، وأما ما يوجب الشبهة في سلوكهم ، وألزم المسلمون بوضع شارة زرقاء في قبعاتهم ، وتسليم كل أسلحتهم ، وحظر عليهم حيازة شيء منها بعد ؛ ومن ضبط معه سلاح فجزأوه الجلد ؛

كما ألزمهم المرسوم بالسجود في الطرقات إذا مامر أمامهم خبر كبير ، وألزموا — أيضاً — أن لا يجهروا بشعائهم إذا أقاموها ، وأن يغلقوا مساجدهم وجوامعهم .

ولم يلبثوا أسبوعاً واحداً حتى فوجئوا في الخامس والعشرين (٢٥) من ذات الشهر بصدور أمر يوجب عليهم مغادرة إسبانيا قبل نهاية شهر يناير (كانون الثاني) سنة (١٥٢٦ م ، الموافق ربيع الثاني سنة (٩٣٢ هـ) ؛ عبر طريق في شمال البلاد عُيِّن لهم في الأمر .

ونصّ المرسوم على أن كل من يُبقى أحداً منهم في ضياعه فجزأوه الغرامات الفادحة . فثار المسلمون لهذا ، سيما من كان منهم في مقاطعة : « قورية » ، وعمّت الثورة كل مقاطعة « بلنسية » .

ويقول بعض المؤرخين بأن عددهم كان يربو على ستّة وعشرين ألف أسرة ، لجأ كثير منهم إلى الجبال ، ولبثوا يقامون جنود السلطة الذين أرسلوا إليهم ، وذهب وفد من رأوا في السلم أمناً ، أو شبه أمن ،

إلى حاكمية « بلنسيه » وكانت تُسمى : الأميرة « جرّمين دِه فوا »
فحوّلت الموضوع إلى بلاط الملك لعرض المطالب .

ومثّل الوفد لدى الملك ، ورجاهُ أن يُمهّل المسلمين خمس سنين
لاعتناق المسيحية ، أو فليغادروا البلاد من خلال ميناء : « الكنت » ،
فرفض الملك هذا الرجاء .

فعرض الوفد أن ينتصرّ المسلمون على شريطة أن لا يُحاكموا أمام
« ديوان التفتيش » قبل مُضيّ أربعين سنة ، فرفض الملك هذا أيضاً .

فقصد الوفد إلى « مانريك » رئيس « ديوان التفتيش » الأكبر ،
وقدّموا إليه مذكرة يعرضون فيها اعتناقهم المسيحية على شروط منها :

(أ) أن لا يطبّق عليهم قضاء الديوان قبل مُضيّ أربعين سنة .

(ب) أن يحتفظوا خلال الأربعين سنة بأزيائهم ولغتهم .

(ج) أن يُسمَح لهم بمدافن خاصّة بهم .

(د) أن يُسمَح لهم بالتزوّج من أقاربهم ، وحتى من بنات أعمامهم

طيلة هذه المدّة .

(هـ) أن تعتبر كل العقود القديمة صحيحة .

(و) أن يستمرّ رجال الدين منهم على القيام بأعمالهم وأن يُعهد إليهم

في قبض رُبع ما كان للمساجد التي حُوّلت إلى كنائس .

(ز) أن يُسمَح لهم بحمل السلاح مثل بقية المسيحيين .

(ح) أن تخفّض الضرائب التي يدفعونها إلى السادة ، وأن تكون مُعادلةً

لما يدفعه المسيحيّون .

(ط) أن لا يدفعوا ضرائب بلدية بالمدن الكبيرة إلا إذا اختاروا الاشتراك

في تولّى أعمال المدينة وأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسيحيّون من

الحقوق .

ولما عُرضت تلك المطالب على مجلس الدولة ، تلخصت إجابته بما يلي :

(أ) أن تُتخذ كافة الإجراءات التي اتخذت إزاء المنتصرين من المسلمين بمملكة « غرناطة » ، مع إخوانهم في المحنة ، في « بلنسية » و « الأراغون » .

(ب) أن يُسمح لهم بالاحتفاظ بأزيائهم ولغتهم مدة عشر سنين .

(ج) أن يُسمح لهم بمدفن خاصة على شرط أن تكون قرية من الكنائس ، وأن يُسمح لهم بدفن المسيحيين الأصليين فيها .

(د) عدم الاعتراض على عقود الزواج القديمة ، ولكن يجب اتباع الشعائر المسيحية في كل عقد جديد .

(هـ) يحتفظ رجال الدين المنتصرين بقبض رُبع ما للمساجد التي حُوّلت إلى كنائس بنسبة ما يذلولونه من الجهد في تنصير إخوانهم .

(و) أن يُسمح للمنتصرين بحمل السلاح أسوةً بالمسيحيين الأصليين .

(ز) أن يُسوَّى بينهم وبين الأصليين في نسبة الضرائب المدفوعة إلى السادة ؛ وأصحاب الضياع ، وكذلك في الضرائب الأخرى .

(ح) أن تستمر الحالة في المُدن كما كانت ، بالنسبة إليهم .

(ط) أن لا تفرض عليهم ضرائب لم تُفرض من قبل .

إرغام على اعتناق المسيحية :

ورأى المسلمون في ذلك أكثر ما يمكن الحصول عليه ، خصوصاً

في مثل ما هم عليه من المحنة والشدة ، فأذعنوا .. ، وأقبل كثير منهم على اعتناق المسيحية ، إلا أقليةً اعتصمت بالجبال ، وأصرّت على الثورة ،

فجرّر الملك جيوشه عليهم ، فما لبثوا أن سلّموا ، وأرغموا على اعتناق المسيحية إرغاماً ، كما دفعوا مبالغ طائلة فديةً لأنفسهم من الرق .

ومطاردة !!

ولم يثن « ديوان التفتيش » في « بلنسية » عن غيّه ، وكان يطمع في القضاء على الجالية الكبيرة من متنصرة المسلمين هناك ؛ واشتدّ « الديوان » في مطاردتهم وأضطهادهم من حين إلى حين ، فكان المسلمون يلجئون إمّا إلى المقاومة ، وإمّا إلى بذل المال فديةً عن أنفسهم .

وسعى لمساعدتهم أحد المتنصرين من المسلمين المدعو : « كوسمي بن عامر » ، وكان له نفوذ في البلاط الملكي لاتصاله به ، لأنه كان من النبلاء ؛ فصدر أمر ملكي في سنة (١٥٧١ م) الموافق (٩٧٨ هـ) ، وفيه معنى العفو عمّن ارتدّ منهم عن المسيحية هم وذريّتهم من مصادرة الأموال إذا هم ارتدّوا ، ولم يستثن من ذلك رجال الدين والفقهاء ، ومن آختن منهم ، ومن آتهم وكان رهن المحاكمة ، فلا مصادرة إذا قبض عليهم .

وفي نظير ذلك تعهّد المتنصرون أن يدفعوا لخزانة الديوان خمسمائة ألفين من (الدوكات) كل سنة .

عودة المحاكم إلى شدتها وإجبار على التنصر

على أن هذا الأمر لم يطل عهده أكثر من رُبع قرن ، حتى عادت (المحاكم) إلى شدّتها ، و(الديوان) إلى اضطهاداته ، ورأى أشراف

« الأراغون » وأصحاب المزارع والضِّياع فيها أن الخير لهم إذا لم يحدث ببقية بلاد « الأراغون » ما حدث في « بلنسية » ، وخافوا على مصالحهم ، فمعظم المسلمين فيها كانوا يَفْلحون أراضى الملك وأراضيهم ، وفيهم مهرة الصُّناع ، وهم مع ذلك لا يأتون جريمة ، بل وادعون مسالمون يكدُّون ويكدحون ؛ وقد أفهموا الملك ذلك ، وأفهموه أن لاداعى لإجبارهم على اعتناق المسيحية ، فلاضطرار لا يعنى التعلُّق بأهداب لدين الجديد والإخلاص له ، ولكن جهود الأشراف وكبار المُلاك كانت غير مُجدية عند ملك لايراعى عُهوداً قطعها على نفسه .

وقد أصدر في سنة (١٥٢٦) م أوامره لـ « ديوان التفتيش » بإجبار مُسلمى بلاد « الأراغون » كلها على التنصُّر ، وقد نُفِدت تلك الأوامر ، ولم يُقاوم المسلمون هُناك ، وقُضِيَ الأمر ، إذ نُفِدت بذلك سياسة التنصير في كل أرجاء إسبانيا .

ورجا أعضاء مجلس النواب من الملك أن يصفح عن المنتصرين إذا ما كان ذنبهم طفيفاً أو اتَّهموا بتهمة تافهة لحدثة عهدهم بدينهم الذى أُجبروا على اعتناقه ؛ فرسَم الملك في أواخر سنة (١٥٣٠) م ، لكبير المفتشين يأمره فيه أن يَغفو عن الأوَّابين ويغفر زلات المنتصرين إذا ما حَسُنَتْ نيَّاتهم .

رجاء :

وكان « دُونُ فرديناند بنجاس » و« دُونُ ميشيل داراجون » و« ديجولوبيز بنشارا » من مُقدِّمى المنتصرين عندهم لانتسابهم إلى أمراء « غرناطة » وسلاطينها السابقين ، وكانوا قد أُجبروا على آعتناق المسيحية

لَمَّا غَلَبَ المسلمون على أمرهم في « غرناطة » ، يوم تسليم « أبى عبد الله » — « الزَّغَل » تقدم ثلاثتهم خلال سنة (١٥٢٦)م إلى الملك لما زار « غرناطة » برجاء ... ، وذكروا في رجائهم شِدَّةَ اضطهاد القساوسة ورجال التفتيش والمسيحيين الأصليين لمتنصرة المسلمين .

لجنة لتقصي الحقائق :

وعهد الأمبراطور إلى أسقف « قادس » برئاسة لجنة تحقيق تطوف أعمال « غرناطة » ، وترى مظالم المتنصرين ، وأتمت اللجنة أعمالها ، وقدمت تقريرها مؤيدة صدق ماقاله الثلاثة ، وعزّت الاضطهادات إلى رجوع جُلّ المتنصرين إلى الاسلام ، وأن القليل منهم هو الذى حافظ على الدين الجديد .

أظهر الملك اهتماماً وعقد مجلساً من المطارنة يرأسه كبير مفتشى (الديوان) ، وبحث المجلس المسألة المعروضة عليه ، وقرر نقل (محكمة التفتيش) من « جيان » إلى « غرناطة » ، وأصدر الملك مرسوماً بالصفح عن المتنصرين وعما تقدّم من ذنبهم ؛ أما من عاد إلى الردّة عن المسيحية فجزأوه العقاب الشديد من (الديوان) .

وأذعن المتنصرون إلى الأوامر الملكية ومافرضته عليهم لجنة المطارنة ، ولم يَسْلَمُوا من دفع الأموال الطائلة للملك ليكون لهم الحق في ارتداء أزيائهم القديمة ، ويعفوا أنفسهم من مصادرة (الديوان) لأموالهم إذا ما اتَّهَمُوا بالردّة .

وكان نصيب المتنصرين في « الأراغون » مثل نصيب إخوانهم في « غرناطة » .

وَرَسَمَ الملك أوامر عدّة وقوانين كثيرة .

منها : مرسوم صَدَرَ عام (١٥٣٤) م يحظر على (محاكم التفتيش) فى « بلنسية » مصادرة أموال المحكوم عليهم من المنتصرين المتهمين بالردّة ، وأن تُدفع تلك الأموال إلى ورثتهم ، ورسم الملك عام (١٥٤٣) م يمهّل فيه المنتصرين فى « الميدو واريفالو » مُهلةً ليعودوا إلى حظيرة الكنيسة .

وَأُلْتَمَسَ من (البابا) سنة (١٥٤٤) م أن يُصدر قراراً بأن يكون لمتنصرى « غرناطة » الحق أن يتولّوا هم وأبناؤهم الوظائف المدنية ، حتى ولو اتّهموا بالردّة أكثر من مرّة ، وأن تكون لهم كافّة الحقوق والامتيازات الكنيسية ، وأن لا يُنظر فى كل القضايا المقامة على المنتصرين أمام (محاكم التفتيش) .

وَأُصْدِرَ فى سنة (١٥٤٨) م أمراً لكبير المفتشين « فالديس » أن يُصدر لائحةً جديدةً يسمح بمقضاها للمنتصرين أن يعودوا إلى حظيرة الكنيسة ، دون أى احتفالٍ علنىّ ، وأن تكون دار المتنصر بين دارين للمسيحيين الأصليين ، ويحرم عليهم استخدام المتنصرين الجُدد ، ويُسمح لأبنائهم الذكور أن يتزوّجوا من بنات المسيحيين الأصليين إذا ماتت زوجة مسلمة متنصرة من مسيحيّ أصيل وحُكم على وليّها الذى دفع لها المهر بمصادرة أملاكه بتهمة الكفر والإلحاد فإن كانت هذه التهمة قد ارتكبت قبل دفع المهر .. فلهذه المتنصرة من المسلمين أن تدفع باستثناء مهرها من المصادرة .

ومثل هذا إذا ما حمل منتصر من المسلمين مالا إلى أسرة زوجته ،
فله أن يحتفظ بماله ، حتى ولو حُكِمَ بمصادرة أموال من أعطى المنتصر
المال .

ومات الملك ... « شارل الخامس » ...

وتولّى من بعده ولده « فيليب الثانى » الشديد التعصّب
للكثلكة ، ولكنه كان يرى من جماعة المنتصرة نشاطاً وقدرةً على فهم
العلوم وإجادة الفنون ؛ وكان (ديوان التفتيش) لا تهد ثائرته أبداً ضد
أولئك المساكين ، كما أن (الديوان) ورجال الدولة كانوا يؤثرون
المسحيين الأصليين على أولئك المنتصرين ، لذا كان المنتصرون يتسلّلون
إلى أفريقية كلما لاحت لهم بارقة أمل فى الهروب من إسبانيا المتعصّبة .

ولم تُفد محاولة الملك لاستبقاتهم ، لأن رجال (الديوان) كانوا
لا يرون رأيه ، وكان كلّما أصدر قانوناً قاوموه وتجاهلوه وعملوا ضده .

فقد أصدر الملك قراراً يبيح فيه للمنتصرة أن يتوبوا على يد
القسيس توبة سرّية فتقبل توبة التائب ، فلا عقاب ولا مصادرة .

وكان القساوسة والأخبار يُخفون ما يُصدر الملك من أوامر وقوانين
فى صالح المنتصرين ، فلا ينتفع بها أحد ؛ وكانت إرادة (الديوان) هى
الغالبة ، وفوق رأى الملك ، والويل والشبور لجماعة المنتصرين .

اشتداد الديوان فى متابعة المنتصرين :

واشتد (الديوان) فى تتبع المنتصرين وأضطهادهم ، فمن نطق
بالعربية ، أو استحمّ ، أو حجب النساء ، أو لبس الأزياء الإسلامية ،
فهو كمن أقام الدليل على ردّته وكفره ، والويل له من التعذيب .

وأخذ صغار الأولاد والبنات من ابائهم المتنصرين ، وعُهد بهم إلى المدارس والكنائس ، ليشتبوا فيها وهم لا يعلمون شيئاً عن العربية والإسلام^(١) ، وأُستُيح كل شيء مع المتنصرين حتى اضطروا إلى أن يجتمعوا جماعات سرّية ويتواطعوا على الثورة دفاعاً عن النفس والعرض واللغة والدين .

وأوفدوا بعض زعمائهم خفية إلى أفريقية ، وطاف البعض بجبال البشرات ليثّ الدعوة للثورة ، وساءَ حظهم حين ضبطت بعض كتبهم ورسائلهم التي تبادلوها مع سلاطين وأمراء المسلمين في أفريقية .

وكان في تلك الكتب أن الحكومات الإسلامية بأفريقية قد استفزتها حالة إسبانيا ، حتى إنهم رأوا أن يبعثوا بالجُند إلى « ماربلة » و« ألمرية » .. ، فأخذت السلطات الأسبانية حذرهما وعززت ثغورها ، وشدّدت الرقابة على شواطئها .

ولكن رجال الثورة لم ييأسوا ولم تفتّر عزيمتهم ، فاجتمعوا في إحدى ضواحي « غرناطة » في اجتماع سرّي واختاروا « محمد بن أميّة »^(٢) زعيماً لهم ، يتولى كبر الثورة وقيادة الناس ؛ وكان الزعيم من سلالة الأمويين ، وقد أُجبر على اعتناق المسيحية وأسموه « فرديناند دى فالور » .

ونزح المتآمرون إلى جبال البشرات ، وبدعوا بإعلان ثورتهم هناك ، وانضم إليهم سكان تلك المنطقة ، وقد تغلبوا على جنود السلطة التي أرسلت لإخماد الثورة .

(١) تماماً كما يفعل الروس الآن مع الأفغان حيث يرسلون آلاف الأطفال إلى روسيا ليتشبعوا بالمبغى الشيوعية ..
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(٢) سبق الحديث عنه وعن ثورته بإيجاز .

وقد آتقحموا الكنائس والأديرة وقتلوا قساوسةً وأحباراً ممّن كانوا يكيّدون لهم ، واستفحل أمر الثورة !! فأضطرت الحكومة إلى تجريد حملة كبيرة على البشرات لتحيط به من كل ناحية ، وحميت الحرب وكانت مواقع حربية مشهودة ، سنة (١٥٦٩ م) ، ولكن جنود الحكومة أمكنها أخيراً أن تنفذ إلى مراكز الثائرين ، فاعتصم هؤلاء برؤوس الجبال ، ووصلت إليهم جماعات من الرجال نجدة من أفريقية استطاعوا الوصول رغم كل رقيب على الشواطىء ، وظلت الحرب سجالاً بين الجنود والثوار .

فأضطر الملك أن يرسل جيشاً كبيراً قائده أخوه « الدّون جوان » ، فسار من « إشبيلية » ... فسارعت « البيازين » وغيرها إلى الخضوع ، ولكن بقيّة إخوانهم الثائرين عزموا على أن يُقاتلوا أو .. يُقتلوا ، وكان قتالهم قتال المستيئس المستميت .

وقُتِل « ابن أميّة » غيلةً أثناء الثورة ، فانتخب الثوار مؤلّاي : « عبد الله » عِوضاً عنه ، وظلت الحرب مستمرة طيلة الشتاء .

ورأى قائد جُنْد الحكومة أن يعتمد إلى سياسة المكر والخداع ، فلجأ إلى المفاوضة وأذاع أمراً بالعفو العام لمن يلجأ إليه ، وأن يمنح المتنصّرين شروطاً حسنة للصّلح إذا هم أذعنوا ولم يُقاتلوا ، فأثر ذلك في بعض الثوّار الذين كلّوا من القتال ؛ ورفض الآخرون الصّلح .. ، وهرب كثير بأسرهم إلى أفريقية خشية الانتقام إذا ما كان الفشل .

ومازالت جنود الحكومة تطارد مؤلّاي « عَبْدَ الله » حتى تمزّق جنده وأعوانه ، وقتله أنصاره في نهاية الأمر فداء سلامتهم ، وحُمِلَتْ جثته إلى « غرناطة » وعُرضت على الناس بعد أن مُثِّلَ بها .

أما ما بقى من المنتصرين فقد أُجبروا على إخلاء دورهم ، وشرّدوا في مقاطعات : « استورس » و « جليكيّا » وروقبوا مراقبةً شديدة .
ودبّر بعض المنتصرين ثورات في « بلنسية » وغيرها ، ولكن الحكومة قبضت عليهم وأذاقتهم سوء العذاب ، وسالت دماؤهم أنهاراً ، وحرقت أجسادهم أكواماً .

التدجين والاسترقاق

وخلفَ الملك « فيليب الثانى » ابنه « فيليب الثالث » ؛ وكان ضعيف الرأى ، خاضعاً لإرادة القساوسة ، وكان وزيره : « دوق دى ليرما » من أشدّ الناس تعصباً للكثلكة ، ومن ألدّ أعداء المسلمين والمنتصرين ؛ فأشار على الملك الضعيف [سنة (١٥٩٩ م) الموافق سنة (١٥٠٧ — ١٥٠٨) هـ ؛ بأنه يجب استرقاق شباب المنتصرين والكهول منهم ، وأن تصادر أموالهم ، لأنهم ... مسلمون !! وأن يُنْفى شيوخُهم إلى مراکش والجزائر ، وأن يُؤخذ أطفالهم فيربّوا في المعاهد الدينيّة المسيحيّة في إسبانيا ، وقد أقرّ مجلس الدولة ذلك المشروع ، وأخذوا يدبّرون في الخفاء كل مايلزم من جهد وقوى لحصر عدد المنتصرين في جميع أنحاء إسبانيا .

وقدم المطران « رابيرا » مذكرةً إلى الملك عام (١٦٠١ م) — (١٥٠٩ — ١٥١٠) هـ يتحدث فيها عن إخفاق كل محاولة مع المنتصرين ، وأن في وجودهم الخطر كل الخطر على البلاد ؛ وأن المبالغ الطائلة التى تُصَرّف لمراقبتهم بدون فائدة .

وقال : إن الدين هو دعامة الدولة الإسبانية ، وعلى هذا فهو يقترح : تأليف (محكمة سرّية) من كبار الرهبان والقساوسة تحكم برّدة المتنصّرين وخيانتهم ، وبناءً على ذلك تحكم بنفبيهم ومصادرة أموالهم ومملكتاتهم .

إلا أن هذه المذكرة — الاقتراح — لم يُعمل بها ، لأن مجلس الدولة رأى السّير في تحقيق مآربه سرّاً ، وأن لا تصطبغ إجراءاته في ذلك بصبغة دينية ، فعهد ببحث المسألة إلى لجنة خاصة يرأسها « الدوق دى ليرما » .

مشروع بالنفي والتهجير

وبعد بحث وجدال طويل بين أعضائها اتخذ المشروع لتنفيذه خطة نهائية ؛ وذلك بإمهال المتنصّرين شهراً واحداً لبيع مملكتاتهم ومغادرة إسبانيا إلى حيث شاءوا ولهم أن يخرجوا إلى أفريقية وهم آمنون ، أو أن يذهبوا إلى بلاد مسيحية إذا شاءوا فيوصى بهم خيراً (؟!!) .

وجعل عقاب من يتأخر عن الرحيل بعد انتهاء الشهر أن يجازى بالموت وأن تصدر أمواله .

ولم يجد المشروع هذا أدنى معارضة ، بل كان الاتفاق عليه بالاجماع .

لكنه لم ينفذ في حينه ، بل تأجل زمناً بسبب انشغال إسبانيا في خصومتها مع إنجلترا وفرنسا .

وعاد (مجلس الدولة) من جديد إلى المسألة ، في شهر يناير
(كانون الثاني) من عام (١٦٠٩) م ، الموافق لشهر (رمضان) عام
(١٠١٧) هـ .

وكتب تقريراً يَحْبِّد فيه نَفَى المنتصرين لأسباب منها :

أن إسبانيا معرّضة لخطر غزوها من مراكش .

وقد أقيمت الأدلة والبراهين على خيانة المنتصرين في هذا الصدد ،
ولهذا فهُم أهل للموت الزؤام أو الاسترقاق ؛ ولكن إسبانيا رحيمة بهم ،
رقية لهم وتكتفي بنفيهم من أرضها (؟!!!) .

وتقرر تنفيذ الخطة في خريف العام المذكور ، وأُرسلت أوامر إلى
الحكام في « صِقْلِيَّة » و « نابولي » و « ميلانو » لِيُعَدُّوا مايلزم من سفن
النقل لأولئك المنتصرين ؛ وقد جُمعت سفن كثيرة تُعَدُّ بالعشرات في
جزيرة « فيورقة » منذ أوائل الصيف .

ولمّا حلّ الثاني والعشرون من شهر سبتمبر (أيلول) سنة
(١٦٠٩) م الموافق لجمادى الثانية سنة (١٠١٨) هـ ، أُعلن قرار
النَّفَى ، فاضطرب المنتصرون وفزعوا .

وقد جاء في هذا القرار :

إن المنتصرة هم أعداء الملة والدين والوطن ، وأن لهم اتصالاً
بأعداء اسبانيا ، وأن لا سبيل إلى جعلهم يعتنقون الدين المسيحي
(الكاثوليكي) ولهذا وجب طرُدُهُم إلى بلاد البربر في أفريقية ، وأنه يجب
أن يغادر المنتصرون إسبانيا رجالاً ونساءً وأطفالاً في ظرف ثلاثة
أيام (؟!!!) من تاريخ يوم نشر القرار في المدن والقرى ، وأن يذهبوا إلى

الثغور التي يعينها لهم المكلفون بترحيلهم من قبل الحكومة ، وجزاء من يتخلف الموت .

وقد صرّح لهم أن يأخذ كل منهم ما يستطيع حمله من المتاع فوق ظهره فقط وأن يحمل كل ما يستطيع من المؤونة ، ولو أن الحكومة تكفلت بمدّهم بالغذاء أثناء السفر ، ويجب عليهم أن يلبثوا خلال الأيام الثلاثة في أماكنهم رهن إشارة الموظفين المكلفين من الحكومة بأمر ترحيلهم ؛ وأن يكون كل ما خلفوه من عقارٍ أو منقول للسادة ، ومن أشعل النار في عقار أو منقول فجزاؤه ، هو وجيرانه في الحى جميعاً ، الإعدام .

وفي الأمر :

أن يختار السادة ستة أشخاص من كل مائة من جماعة المنتصرين ، شديدى التعلّق بالمسيحية ، كثيرى الخبرة بأعمال الزراعة والفنون ، وأكبرهم سناً للانتفاع بهم في تلك الأمور ؛ ومن كان دون الرابعة من سنّه سُمح له بالبقاء إذا رضى بذلك (؟!!!) أو إذا رضى آبائهم أو أولياؤهم بذلك ، وإذا كانوا دون السادسة وكانوا من أبناء المسلمين الذين لم يتنصّروا فلهم أن يبقوا وأن تبقى معهم أمهم المنتصرة ؛ وإذا كانت الأم نصرانية أصيلة والأب مُتنصّراً ، فإن الأب يُنفى وتبقى الأم مع أطفالها الذين هم دون السادسة ، وكل متنصّر أقام بين مسيحيين مدة عامين ولم يختلط بالمتنصرين ، وشهد له قسيس بأنه على نصرانيته ، فله أن يبقى .

وكل من أخفى هارباً ، أو حمى متنصّراً ، فجزاؤه الأشغال الشاقة مُدّة ست سنين .

وقد أمر الجنود ، والمسيحيّون الأصليّون ، بعدم التعرّض
للمتنصّرين ، وأن لا يهينُوهم لا بالقول ولا بالفعل ، وجزاء مَنْ يفعل ذلك
شديد العقاب !!!

كان ذلك القرار مفاجأة شديدة الوقع على نفوس المتنصّرين ،
وكانت الثورات السالفة قد أنهكت من قواهم ، وأدركوا أن الحكومة جادة
فيما اتخذت من قرارات ، وأنها قد هيأت نفسها وبكل الوسائل لتنفيذ
قرارها ؛ وأعدّت مالدّيتها من بأس وقوّة في كافة الأرجاء ...

ومع ذلك ... ، فقد حاول البعض أن يثوروا وأن يُقاوموا وأن يُدافعوا
عن أنفُسهم ما استطاعوا ، لاسيّما في بعض المناطق الجبلية ، إلا أن
مقاومتهم لم تُجِدْهم شيئاً ، وتغلّبت الحكومة بقواتها وجبروتها عليهم
بسرعة ، وأخذت انتفاضاتهم اليائسة .

النّفى والتّهجير والتشتيت

بُدىء بتنفيذ القرار في مقاطعات « الأراغون » و « بلنسية » لأن
القرار نُشر فيهما أولاً .

ففي أوائل شهر أكتوبر (تشرين الأول) (١٦٠٩) م الموافق :
شهر رجب سنة (١٠١٨) هجرية ، نفى نيّف وثمانية وعشرون ألفاً من
المتنصرين من ثغر « دانية » وثغور أخرى .

وقد ذهبت بهم السفن إلى « وهران » في الجزائر ، ونزلوا في جوار
وحماية سلطان « تلمسان » .

ونُفّي من ثغر « بلنسية » ما يقرب من خمسة عشر ألفاً ، ونُفّي
البعض من « الكنت » بينما كانت فرق الموسيقى تعزف ألحانها !!!

والأناشيد تُرثِّل !!!

ويقدَّر بعض المؤرخين عدد المنفيين حتى أواخر سنة (١٦٠٩) م
بما يقرب من مائة وخمسين ألف نسمة .

وقد كان بين المنتصرين ألوف من ذوى الثراء ، أمكنهم أن
يسافروا على نفقتهم الخاصة .

ورحل ما يقرب من الخمسة والعشرين ألف نسمة كانوا في
« الأراغون » إلى « نافارا » ، ورحل من « قشتالة » نحواً من سبعة عشر
ألفاً قصدوا فرنسا ، فأذن لهم ملكها « هنرى الرابع » بذلك ، على شرط
أن يحافظوا على المذهب الكاثوليكي ، وأن يسكنوا ما وراء « الغارون » .

أما في الجنوب الشرقى من إسبانيا ووادى الأندلس فقد أعلن
المنتصرون هناك بقرار النفى في « غرناطة » في الثانى عشر (١٢) من
شهر يناير عام (١٦١٠) م الموافق السابع عشر (١٧) من شهر شوال
سنة (١٠١٨) هـ .

والقرار يشابه ما أشرنا إليه آنفاً من الشروط ، إلا أنه سمح
للمنتصرين بالرحيل خلال شهر ، كما أذن لهم أن يبيعوا المنقول مما
يملكون ، وأن يقبضوا أثمانه ، وطبعاً يسهل فهم ما لهذا القول من قيمة
وماتباع به الأشياء من أثمان هى نهاية ما يمكن أن يحصل عليه مضطر
للبيع العاجل من رخص الأثمان .

ونص قرار « غرناطة » — أيضاً — على أن الملك قد صادر عقار
المنتصرين وأخذه لنفسه .

ويقدّر المؤرخون عدد المنفيين من إقليم « غرناطة » بما يقرب من
مائة الف نسمة . واتّسع شمول القرار حتى بلغ كل ناحية ودسكرة في
إسبانيا .

ولا يمكن تصوّر مدى القسوة والوحشية والشدة في معاملة أولئك
البائسين ، ولقد ظلّت سُنن الثقل المعدّة لتهجيرهم ، تروح وتغدو
شهوراً طوالاً ، وهى مشحونة بهم ثلثيهم في ثغور أفريقية على صورة من
الذلّ والهوان ، تفتّت الأكباد أسى وحسرة ، وتذيب أقسى القلوب أسى
ولوعة .

عدد المنفيين

أما تقدير عدد المنفيين من إسبانيا كلها بعد ذلك القرار فإن
الخلاف فيه كبير ومتفاوت ، بين المؤرخين .

فأما « فليورنتى » فإنه يقدّرهم بـ مليون نسمة ، وغيره يُقدّرهم
بستائة ألف ، وثالث بتسعمائة ألف .

لكن « فون بورجشتال » — النمساوى — يقدّرهم بثلاثمائة وعشرة
آلاف .

وتُقدّر إحصائية تقريبية لسكان إسبانيا في تلك العصور بثمانية
ملايين نسمة ؛ وإذا حملنا ما يقوله « نافاريتى » — وهو من كبار
مؤرخى إسبانيا — على حقيقته بأن عدد من نُفى من إسبانيا أثناء تلك
العصور هو ألفان من الألوف اليهود وثلاثة ملايين من المسلمين — أو
من متنصرّهم ، عدا من استرقّ منهم أو قضى نجه تعذيباً وحرّقاً —

وعدهم كبير جداً يصعبُ إحصاؤه ، ولكن العدد التقريبي لا يقل بأى حال من الأحوال عن مائتى ألف إلى ثلاثمائة ألف نسمة .

وإذا ماراجعنا كل تلك الأعداد الضخمة لتقريب الحقيقة إلى الأذهان بقدر المستطاع أمكننا أن نعرف مدى الفاجعة التاريخية التى حلت بالمسلمين فى تلك البلاد ، وهى من أسوأ ماسجلت أسفار التاريخ من ظلم وفضاعة وقسوة وبربرية .

وذلك على حدّ قول الكاردينال « ريشيليو » .. !!
والتى لم تُرض — أيضاً — « كليورنتى » أحد رجال الدين المسيحيين ،
والذى كان من أعرف الناس بخبايا وخفايا (ديوان التفتيش) وأعماله ،
تلك الأعمال التى لا يغمض العين عن إتيانها وارتكابها من يملك ذرة من العقل والشعور !!!

مابعد التّفى

لم تكف (محاكم التفتيش) عن إتيان مخازيها ، وسجل التاريخ عدة حوادث ومحاکماتٍ على أفرادٍ وجماعات أثّهموا بالارتداد عن الكثرة بعد نفى تلك الجموع الغفيرة .

فقد قبض فى « بلنسية » على « فرُنشيسكو دى لوكى »
المتنصر ، سنة (١٦٢٥) م ، وكان قد فرّ من إسبانيا وانضم إلى قراصنة
الجزائر الذين كانوا يغيرون على شواطئ أوروبا ، ويُقال بأن هذا الرجل
قد أدّى فريضة الحج ، ووصف رحلته فى كتاب الله ، وقد حكمت
عليه (محكمة التفتيش) بالجلد ، والسجن مدى الحياة .

وبعد عشرين سنة قبض على جماعة من متنصرة العبيد لأنهم

حاولوا الفرار من الجزائر وقضت عليهم (محكمة التفتيش) في « بلنسية »
أن ينوقوا صنوف عذابها .

وصلّرت أحكام في « قرطبة » على مسلمة استرقت وأجبرت على
التنصّر لمحاولتها الفرار إلى الجزائر واتهامها بالارتداد عن المسيحية .

وصلّرت أحكام في « برشلونة » كذلك ؛ وفي « ملريد » سنة
(١٦٨٠) م قُتِلَ للمحكمة مُسلم من « قادس » اسمه « مصطفى » ،
أُجبر على أن يبدل اسمه باسم مسيحي ، وأصبح يُدعى : « لازارو
فرننلو » ... ، ولم يُنكر الرجل إسلامه بل أصرّ عليه ، فأُعِدَّ حرقاً هو
وجماعة أُخرى اتّهموا بتهمة عديدة .

ولم يغفل (الديوان المقدّس) ، ولم يتوان لحظة عن أداء المهمة
الوحشية البربرية التي تطوّع أفرادها للقيام بها ؛

فقد صدرت أحكام عن محاكمة في بلاد : « الوليد » و« طليطة »
و« ملريد » وفي « قرطاجنة » حيث ضُبُطت جماعة من المنتصرة يُصلّون
سراً بمسجد هناك سنة (١٧٧٩) م الموافق (١١٧٣) هـ ، ولا نسل
عما لاقوه من جزاء .. وعقاب .. وحرق !!!

على أن (الديوان) كان نشيطاً مُجدداً في اضطهاد غير اليهود
وغير المسلمين .. ، في محاكمة المسيحيين أنفسهم باتّهامهم بأنهم حادوا
عن الكثرة ؛ مع أن رجال (الديوان) كانوا يهدفون إلى أشياء أخرى
دنيوية محضة ، لادخل للدين فيها ، وإلى مآرب منحطة في أغلب
الأحيان .

وقد حاول (البابا) — « بول الرابع » — الرئيس الأعلى وصاحب الكلمة العليا التي لاتردّ في شؤون (الديوان المقدّس) وفي (محاكم التفتيش) أن يُطوّع (الديوان) لتجريد « شارل الخامس » وآتته من الملك .

ومن أضطهدهم (الديوان) ورجاله مُطران « طليطلة » [بارثلمى كارانيزا] سنة (١٥٥٧) م ؛ فقد دُبّرت ضده المكائد ونُصبت له الشراك ، بسبب حقّد بعض كبار الأخبار له .

وقد اعتقل في بلد « الوليد » بمنزل خاص بعد أن قبض عليه في الثاني والعشرين من شهر أغسطس (آب) سنة (١٥٥٩) م (٢٤ ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ) لاتهامه بالكفر ؛ وقد لبث في مُعتقله إلى الخامس من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة (١٥٦٦) م ، وحُمل إلى « روما » وهو ضعيف ليحاكم هناك .

وقد أصدر (البابا) أمره إلى المطران المعذّب أن يتوب عن كل آرائه في الكُفر والإلحاد ؟!! وأن لا يوافق في آرائه آراء « مارتن لوثر » رأس الكنيسة الانجليكانية ؛ ثم قضى عليه بالاعتقال خمس سنواتٍ أخرى في دير عيّنه له ، ويؤدى صلواتٍ عيناها له — أيضا — .

وقد قضى المطران الهَرِم نَحْبَه في سجنه ، في الثاني من شهر مايو (آيار) سنة (١٥٧٦) م ، بعد أن قاسى ماقاسى من ألوان العذاب . وقد حُكم على « دون ردرينجو دى بومون » من أمراء « نافارو » ومن عظماء إسبانيا سنة (١٥٤٢) م لعطفه على المنتصرين .

وكذلك حُوكَمَ أمير البَحر لملكة « أراغون » [سائكوډى
كرودفا]^(١) مُتَّهَمًا بالكُفر والزندقة ، وقد اعتُقل وتوفى فى أحد الأديرة
وهو شيخ طاعن فى السن .

واستمر الديوان فى جبروته وطغيانه وفسقه وفجوره حتى احتلّ
الفرنسيون إسبانيا وصدر أمر « نابليون » سنة (١٨٠٨) م سنة
(١٢٢٣) هـ ؛ بإلغائه .

ولكنه عاد للحياة فى عهد « فرديناند السابع » ملك إسبانيا الذى
أحياه سنة (١٨١٤) م ... ، وظلّ يعبث فى مظالمه حتى سنة
(١٨٣٤) م حيث وافق مجلس النواب على إلغائه نهائياً فى إسبانيا
كلها .

ولقد كان الرئيس « تركويمادا » يفخر بأنه قضى بأحكامه الجائرة
وتفننه فى صنوف التعذيب على نيّف ومائة ألف نسمة ، طيلة سبعة عشر
عاماً قضاها فى رئاسة (الديوان) الدموى !!!

وحكم الرئيس « ديزا » خلال سبعة أعوام من ولايته على مايقرب
من خمسة وثلاثين ألف نسمة .

أما « كمنيس » فإنه اشتد على المسلمين والمتنصرين إذ قضى
قضاؤه على إهلاك نيّف وخمسين ألف نسمة ، طوال اثنتى عشرة سنة .

عدد الضحايا

ويُقدَّر « ليورنتى » — وهو خبير بأعمال محاكمات (الديوان)
عدد الضحايا من أوّل عهد (الديوان) حتى أوائل القرن التاسع عشر

(١) كروفا : (قرطبة) .

بما يأتي :

٣١,٩١٢ شَخْصاً أُحْرِقُوا فِعْلاً

١٧,٦٥٩ أُحْرِقَتْ رَمُوزُهُمْ وَتَمَثِيلُهُمْ

٢٧١,٤٥٠ أَوْقَعَتْ عَلَيْهِمْ عَقُوبَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ ، وَكُلُّهَا شَدِيدَةٌ

٣٢١,٠٢١ مجموع الضحايا

وسواء كان هذا الرقم صحيحاً أو كان مُبالغاً فيه على رأى البعض ، أو أقل من الحقيقة بكثير على رأى آخرين ، فمما لاشك فيه أن أمثال تلك الفظائع التى كان يأتيتها (الديوان المقدس) ، والأحكام القاسية الجائرة التى كانت تقضى بها (محاكم التفتيش) وتنفذها هى .. ، فظائع ليس لها مثيل فى تاريخ كبار المجرمين من جزارى التاريخ « تيمورلنك » أو « نيرون » !!!

* * *

كيف بدأ (ديوان التفتيش) ؟

اجتمع رجال الكنيسة (الكاثوليكية) في مدينة « كولوز » — الفرنسية — سنة (١٣٢٩ م) (٧٢٩ هـ) ؛ لأول مرة أيام البابا « غريغوريوس » — التاسع — اجتماعاً تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من أئهم في عقيدته (الكاثوليكية) ، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد جماعة (الكاثوليك) — أمثال اليهود و (البروتستانت) — الإنجليي ، وجماعة المفكرين الأحرار ، والمسلمين الذين كانوا في أوروبا (في إسبانيا والبرتغال) — ، وكل من يُتهم بالإلحاد والزندقة في مسيحيتته (الكاثوليكية) .

ولكن البابا المذكور لم يقرر إنشاء (الديوان) بطريقة رسمية والعمل بما رآه المجتمعون ، إلا في سنة (١٣٣٣ م) — (٧٣٤ هـ) ؛ فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص ، للبحث عمن أشرنا إليهم سابقاً ، وتقديمهم لمحكمة بابوية خاصة .

وحوّل لكاهن التفتيش الخاص أن يستعين بمن يراه لازماً لمعاونته من الجواسيس ؛ وكان يُطلق على تلك المحكمة البابوية الخاصة اسم (الديوان المقدس) أو (التفتيش المقدس) .

ولم يكن يُعرف أولئك الجواسيس ، بل أُخفيت أسماءهم عن الناس ووُعدوا بغفران خطاياهم ، وأُحلّ لهم ارتكاب الجرائم مهما يكن نوعها ، ومهما يعقبا من عظام الأمور .

فكان المتهم الذي يحضر أمام المحكمة يُسأل ويُقرّر بما يعتقد

صراحة عن الكنيسة وعن الدين المسيحى ، فإذا أبى الإذعان دُفع به إلى
مُعذِّبين يسومونه سُوء العذاب .

وظل (ديوان التفتيش) يعمل فى فرنسا ، تارة جَهْرَةً وتارة خَفِيَةً ،
تَبَعاً لآراء الملوك الذين عضدوه ، حتى كانت الثورة الفرنسية
(١٧٨٩ م) ، فتقرّر إلغاؤه ، وانتقم الشعب من رجاله ، وهرب بعضهم
إلى إسبانيا والبرتغال لينضمّوا إلى رُصفائهم هناك .

ومع أن ذلك (الديوان) وتلك المحاكم كانت معروفة فى فرنسا
وإيطاليا وفى بلادٍ أخرى من أوروبا ، إلا أنها لم تعمل بها مثل ما عملت فى
إسبانيا والبرتغال ، ولم تمارس من الفظائع والأعمال البربرية الوحشية مثل
مامارست فى شبه جزيرة (إيبيريا) — إسبانيا — حتى قدّر بعضهم عدد
ضحايا التفتيش بما لا يقل عن تسعة ملايين من الناس فى المدة الزمنية بين
(١٣٣٣ م) إلى (١٨٣٥ م) — خمسة قرون — حيث ألغى فى
إسبانيا بعد أن لَطَخَ بعاره كُلُّ أرجائها ، وباللّمْ الإنسانى البرىء
المسفوك ، لماذا؟؟ فى سبيل نُصرة (الكتلكة) !!!

*

*

*

سُجُون التفتيش

في

إسبانيا

يذكر بعض عارفي إسبانيا والدارسين لأحوالها والمطلعين على بواطن الأمور فيها ، أنه يوجد إلى يومنا هذا في عِدَّة مُدُن منها أبنية قديمة ، غريبة في هندستها وشكلها ، تُباين ماحولها كل المباني ، كأنها مجموعة من قصور وأذيرة وسجون معاً ، فجُدرانها ضخمة ونوافذها قد اعترضها حديد ضخم غليظ قد تَصَدَّأ .

وإذا وَلَجْتَ إحدى هذه الأبنية من الخلف رأيتها مؤلفة من عِدَّة غُرَفٍ صغيرة ، يوصل إليها بِمَمَرٍ ضيق ؛ وَيَصِل الثُّور إليها من كُوَّةٍ صغيرة في سَقْف كل غرفة ، وقد أُحْكَم سَدُّ الكُوَّة بثلاثة أَدْوَارٍ من غليظ الحديد عليها .

ويرى الزائر في أَرْضِ الممرِّ فتحاتٍ صغيرة كل فَتْحَةٍ تَبْعُدُ عن الأُخرى نحو مِثْرٍ ونصفِ المِثْر ، وقد أُحْكَم سُدُّها بالحديد الغليظ ، وقد خصصت هذه الفتحات للمسجونين في الغرف السُّفلى تحت الممرِّ ، أى الغرف التي بالدُّوَر الأسفل ، ومن تحته طبقات أخرى عديدة تحت الأرض وهي سجونٌ سِرِّيَّة لا يَهْتَدَى إليها إلَّا رجال المحكمة ، والسجانون فحسب .

ومهما يكن النهار رائعاً والشمس طالعة مُشرقة ، فإن الزائر لا يُنْصَر شيئاً في تلك الممرات والغرف ، لِشِدَّة ظُلْمَةِ المكان ، بل يجب أن

يصطحب نوراً كاشفاً يضيء له الطريق .

أما الغرف فقد كانت تُطلى بالشَّحْم ، ويبدو أن ذلك كان بهدف
مَنع السَّجَّين من تسلُّق الجدران للهرب ، أو عمل أى أثرٍ فى الحائط
للنجاة ..

ثم يرى بعض آلات التعذيب فى كلِّ مكان ، كالأسواط التى بها
بعض قِطْع الحديد الشائك ، لجلد المسجونين وإهراء لحومهم عن
عظامهم ... ، وقُدُور من الحديد لعلها كانت لِصَهْر الرصاص فيها وصبّه
على المعذَّبين ، أو لِعَلَى الماء أو الزيت لمثل ذلك الغرض ، ويوجد إلى
جانب ذلك مُستودع لِلشَّحْم لايزال كثير منه إلى الآن بقُربها .

ومع أن تلك السجون كانت مملوءة بالرطوبة الدائمة ، فقد كان
الماء يُصبُّ فيها باستمرار كى لا تتشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان
المعذَّبين وتبقى مشبعة بها .

ذلك مثال على أبنية التعذيب التى كانت تُدعى : (دُور الديوان
المقدس) ويستولى الرُّعب والخوف على كل من يمرُّ أمامها لِمجَرَّد تصوُّره
أنه سيَدْخلها يوماً ما ، فكان يتلفَّت يميناً وشمالاً وإلى خَلْف ، وهو
لايُصدِّق أنه سيجوزها ويتخلَّص من منظرها المخيف المرعب .

* * *

سجون التفتيش

في

البرتغال

كانت محكمة (ديوان التفتيش) العامة في (البرتغال) بمدينة « لشبونة » ، في مكان الملعب الوطنى اليوم ، وقد شغلت أبنيتها كل الحى ، حتى إن أبوابها الخلفية كانت تصل إلى الطريق المؤدى للدير القديس « أنطونيو » .

وقد بُنيت هذه الدار بطريقة تؤدى الغرض من إنشائها ، فكانت ذات غرفٍ عديدة وممراتٍ مظلمة تحت الأرض ، وفي وسطها أربع قاعاتٍ كبيرةٍ فسيحة ، كل منها أربعون متراً مربعاً ، ويحيط بكل قاعةٍ ثلاثة أروقةٍ مؤلفة من ثلاثة أدوار ، وفي جدران تلك الأروقة أبواب صغيرة ، الواحد جوار الآخر ، كانت أبواباً للسجون المعدة للمتهمين والمُعذِّبين .

وفي الممرِّ الأسفل الذى يحيط بكل قاعةٍ سجون صغيرة وضيقة ، حالكة الظلام ، وقد أُعدَّت لِمَنْ هُمْ أَشَدُّ كُفْراً وضلّالاً من غيرهم !!!

وكانت الأروقة الثلاثة وما بها من سجون تحيط بكل قاعةٍ من قاعات التعذيب ، وهى عبارة عن ثلاث درجّاتٍ للتعذيب ، تبعاً لذنب المتهّم فى نظر رجال الديوان وتقديرهم ، وما يحكم به عليه من أنواع العقاب .

فمن كانت ذنوبهم خفيفة سُجِنُوا بالسجون العليا ، وهؤلاء يصلهم فيها قليل من النور ، وكان جُلُّهم ممن قُبِضَ عليهم للبحث عن شؤونهم والتَّشَبُّت من أمورهم ، لأن الديوان ما كان ليَتَق كثيرا بأى تهمة تصِلُهُ مالم تكن عن طريق أفرادِهِ وعيونه الذين عيَّنهم ، أما من وشى بهم غير الجواسيس فكانوا يُزَجُّون في تلك السجون العليا .

وكان (الديوان) يسعى للقبض على أعدائه الذين يرغب في التَّخَلُّص منهم دَفْعَة واحدة ليقْتُلهم ، وأمثال أولئك المسجونين سَجْنًا احتياطياً كانوا قلائل نادرين جداً .. ، وقَلَّ من قبضت عليه محكمة (ديوان التفتيش) وأدخلته سجونها وخرج حياً منها !!! لأن أولئك المفتشين كانوا يقضون على كل مخالفٍ لدينهم وكنيستهم بالموت ، أما من كان معهم فله أن يفصل مايشاء دون أى مسؤولية ، ولاعقاب عليه .

وخصصت الطبقة الوسطى من تلك السجون للنساء اللواتي كان رجال « الديوان » يترددون عليهن من حين لآخر !!! وكثيراً ماكان يتم ذلك للعبث بعفافهن في تلك الدار الموحشة .

وكان لأبواب تلك السجون الفردية عوارض غليظة من حديد ، يظل بها السجين بعيداً عن الباب بطريقة أُعِدَّت لذلك .. ، لئلا يحاول الكسر ... ، ومع فرض كل المستحيلات ، وتمكّن سجين من أن يفتَح الباب ، فإنه يرى أمامه سوراً عالياً طوله خمسة وعشرون متراً يفصله عن السجن خندق عميق عرضه يتراوح بين الأربعة أمتار والخمسة ، ويطوف به الحراس ليلاً نهار .

ولا يرى السجين شيئاً مما في الخارج ، ولايدرى مافيه ، ويدخل إليه بصيصٌ من نور ضئيل ، وقليل من الهواء — لئلا يحتنق — من فتحة

صَغِيرَةٍ فِي أَعْلَى الْبَابِ ؛ وَكُلْ غُرْفَةً — لَا تَزِيدُ عَلَى مَتْرَيْنَ طَوْلًا وَمِثْلَهَا عَرْضًا ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ الْإِنْسَانُ مَا بِهَا مِنْ ظَلَامٍ ، خُصُوصًا سَجْنِ الطَّابِقِ الْأَسْفَلِ ، وَلَا سَيِّمًا إِذَا لَاحَظْتَ أَنَّ الْمَرَاتِ الَّتِي يَسْتَمِدُّ مِنْهَا السَّجْنِيُّ النُّورَ مَظْلَمَةٌ ظَلَامًا يُحْتَاجُ السَّائِرَ فِيهَا إِلَى مُصْبَاحٍ وَلَوْ كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ !!!

وَكَانَ ذَكَرَ تِلْكَ السَّجُونَ يَلْقَى الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ أَشْجَعِ الشَّجْعَانِ .

وَكَانَ يَرَى الْمُتَأَمِّلُ إِلَى جَانِبِ تِلْكَ السَّجُونَ الْمَطَابِقِ الْمُتَّصِلَةِ بِقَاعَاتِ (دِيْوَانِ التَّقْتِيشِ) الْغُرْفِ الْفَسِيحَةِ ، وَالْأَبْهَاءِ الْفَخْمَةِ ، وَقَدْ تَوَفَّرَ فِيهَا كُلُّ أَلْوَانِ الرِّفَافِيَّةِ ، وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ .. ، فِيهَا الرِّيشُ الْفَاخِرَةُ يَتَقَلَّبُ عَلَيْهَا رِجَالُ (الْحَكْمَةِ الْمَقْدَسَةِ) فِي الدِّمَقْسِ وَالْحَرِيرِ ، وَالْمَقَاعِدِ الْوَثِيرَةِ ، وَالْأَرَائِكِ وَالطَّنَافِسِ .. ، يَأْكُلُونَ مَا لَدَّ وَطَابِ ، وَيَحْتَسُونُ مُعْتَقَ الْخُمُورِ وَالْأَثْبَذَةِ ... ، يَسْكُرُونَ وَيَطْرَبُونَ عَلَى أَنْغَامِ مَا يَصْنَدُرُ مِنْ فَرَائِسِهِمْ مِنْ أَنْثَيْنِ ، وَصُرَاخٍ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .

* * *

أنظمة السجون وقوانينها

لم يكن لدى السجين سوى قطعة خشب ، طولها متران وعرضها متر ونصف المتر ، وهي سريه على الأرض !!! ويعطى له غطاءان من الخيش ، يفرش واحداً ويغطيه الآخر ، وتُعطى له قريدة أو قطعة من البلاط تكون وسادةً له ، ويُترك له إناءان يحوى أحدهما ماءً للشرب ويحفظ في الثاني بوله وبرازه ، ويُترك له إناء آخر للزيت يضع منه في المصباح الذي يُلزم بإضاءته ليل نهار .

وهذا الأثاث !!! للذين هم في الحبس الاحتياطي . وكانت جريزتهم صغيرة ، أما من عداهم فلا ...

وسبب الإلزام بإضاءة المصباح ليل نهار كي لا يميّز الليل من النهار !!!

وكان يُستعاض في سجون إسبانيا عن المصابيح الزيتية بالشموع ، ليذكر السجين بأنه أصبح في عداد الأموات الذين تُوقد لهم الشموع في عرفهم عند الاحتضار وبعده ، لِشِدَّةِ النكاية بهم وهم أحياء ، وَلِبَعَثِ الرهبة في قلوبهم ، فيلتزم الهدوء والسكون .

ولم يكن يُسمح للسجين برفع صَوْتِهِ حتى في الصلاة ، بل يجب أن يلتزم الصمت التام ، والويل كل الويل لمن خالف تلك الأنظمة أدنى مخالفة .

وكان يُفرض على كل سجين منهم قرش واحد في اليوم ، فإذا ما انتهى الشهر طاف السجان بالسُجناء يجمع منهم القروش ، ويسأل كُلَّ

واحد منهم ماذا يرغب أن يفعل بها في شهره التالي ؟ وماذا يريد من مأكل مثلاً ؟

وإليك إحدى الإجابات النموذجية المحفوظة :

- ١ — تسعة قروش ليُقدّم كل يوم صحن مرق لحْم ساخن .
 - ٢ — ثمانية قروش ثمن خُبْز .
 - ٣ — أربعة قروش ثمن جُبْن .
 - ٤ — قرشان ثمن فاكهة .
 - ٥ — أربعة قروش ثمن نبيد .
- وبالباقي وقدره ثلاثة قروش لغسل ثيابه .

وكان يصحب السجّان كاتبٌ يدوّن مطالب السجناء كلّاً على حدة ، فيقدم للسجين كلّ ما أملاه على الكاتب وما أبداه من رغبات مع تقديمها تماماً في مواعيد مضبوطة .

أما إذا جاء أمر من (الديوان) بإلغاء شيء منها أو بإلغائها كلّها فلا يُعطى شيء ما ؛ وإذا اقرّر المجلس شيئاً للسجين من الأطعمة فيجب على الكاتب والسجّان أن ينفّذا ذلك بكلّ دقّة ، وإلاّ نالهما من العقاب الصارم ما يجعلهما عبءاً لغيرهما ، لأنهما لم ينفّذا أوامر (المحكمة المقدّسة) التي كان رجالها يعتبرون أنفسهم ثواب الله في أرضه .

أما من كان يستزيد في المقرّر من طعام وخمر — وكان جُلّهم من الغرباء — فكان يجب عليهم أن يتقدّموا لرجال الديوان ويشافهوهم بطلباتهم وحاجاتهم فيستمع لهم رجال (الديوان) وينصتوا وتُجاب الطلبات غالباً ما لم يكن منها ما يضر بالصّحة ، وكانوا يقصدون بذلك أن

يُطِيلُوا آجَاهُمْ لَتَنْفِذَ فِيهِمْ مَشِئَةُ الْحَكْمَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَلَا يَدْعُوهُمْ يَمُوتُونَ مِنْ
مَرَضٍ تَسَبَّبَ عَنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ .

وكان محظوراً على السجين أن يكلم أحداً أو أن يرفع صوته سواء
كان من الآلام أو للصلاة أو لاستغفار الله أو للترتيل أو للغناء أو لأي
سبب آخر ، فكأنما قد انقطعت صلته بالعالم بأسره انقطاعاً تاماً ، ومن
خالف تلك الأوامر عرض نفسه للعذاب وللقصاص الأليم .

وكان حُرَّاس السجون ورجال النظام في تلك السجون المظلمة
ينقلون لرجال (الديوان المقدس) كل ما يحدث ، فلا تخفى عليهم
خافية .

وكانت الممرات التي بها أبواب السجون ملاءى بالسجانين
يستمعون لمعاشر البائسين في المطابق ويأمرونهم ألا يرتكبوا ما يحرمه رجال
التفتيش عليهم مرة ، فإذا عاد أحدهم وارتكب مخالفة [على حد
تعبيرهم] صدر الأمر بإرسال السجين إلى حضرة رجال المحكمة ،
ويخرج المسكين أمام بقية المسجونين ، فإذا مثَّل أمام المحكمة أصدرت
حكمها بسرعة بتأديبه وتعذيبه ، فيُرسل إلى قاعة التعذيب ، فيصيح من
شدة الآلام التي يقاسيها حينئذ ويصرخ ، فإذا ماسمعه رفاقه في السجن
مَلِكُوا رُغْباً وَأَشْتَدَّ بِهِمُ الْحُزْنَ وَالْغَمَّ .

وكان محظوراً على السجين الاتيان بحركة أو الكلام وهو في سجنه
منعاً باتاً ، حتى إن أحد المسجونين أُصيب بالسُّل بعد أن قضى زمناً
طويلاً في عذابه وسجنه الرطب الموحش المظلم ، فأخذ يَسْبُل رغم
أنفه ، فأندروه بأن لا يعود إلى السُّعال بعد ، فأجاب وهو خاشع ذليل أن
هذا رغم إرادته ، وأنه لا يمكنه الانقطاع عن السُّعال ...

واشتد عليه المرض فَأَكْثَرَ من السُّعال ، فاقتيد إلى المحاكمة ،
فقضت بِضَرْبِهِ بالعَصَى ، فَضُرِبَ حتى سقط بين أيدي مُعَذِّبِهِ
القُسَّاه ... ، واستراح من تعاسته ومرضه ... والعذاب .

والذى روى هذا شاهدُ عيانٍ أَثَّهَمَ بأنَّه من (الماسون) ، وسُجِنَ
عام (١٧٤٣) م .

* * *

[ديوان التفتيش]

في

(البرتغال)

بدأت (محاكم التفتيش) تبشر فظائعها ببلاد (البرتغال) حوالي سنة (١٥٤٧) م ، أيام الملك « جوان » — الثالث — أى عندما ابتدأت الأسرة المالكة هناك بالانحطاط ... ، ونرجو أن لا يفهم من هذا أنه لم يكن هناك اضطهادات دينية عديدة وقعت على الناس في بلاد « البرتغال » و « إسبانيا » قبل ذلك التاريخ !!

فكّل من درس التاريخ — أو قرأه — ، تاريخ تلك العصور المظلمة ... ، يعلم شدة غلوّ الملك « فرديناند » في تعصّبه لمذهبه (الكاثوليكي) .. ، والذي كان يقول عبارته الشهيرة :
[يجب أن تكون إسبانيا إما كاثوليكية أو إسلامية]

ويعنى بذلك أنه يجب أن تدين البلاد بدين واحد وهو المذهب الكاثوليكي — طبعاً — ، ويجب أن لاتدين بدين آخر .

أما في « البرتغال » فقد أدخل الملك « جوان » — الثالث — ذلك (الديوان) الخاص ، المعروف بقسوته وعُتوه في محاربة من خالفه . وكان ذلك الملك يأتى إلى ساحة المدينة التى كان يُحرق بها من حكمت عليهم (محاكم التفتيش) بالحرق والعذاب ، وكان يصحب معه الملكة والوزراء ورجال الدولة ، وكبار رجال الدين ، فيتبوعون مجالسهم في

مكانٍ مرتفع مُزَيَّن بأحسن زينة لِيُمَتَّعُوا النفس بمناظر التعذيب وحرَق
إخوانهم في البشرية وهم أحياء !!!

ويعيدون تمثيل قصّة أصحاب الأُحدود الذين قال الله تعالى فيهم :
﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُحْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ
وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ !!!

* * *

حَفَلَةُ حَرِيقٍ !!!

كان يتقدم الموكب كاهن يرتدى حُلَّةً بيضاء ، ويحمل صليباً أسود في يده ، يترنم بترانيم الموت . ويمر أولاً أمام عرش الملك ويعود فيقف في الساحة ؛ ثم يأتي فريق من الكهنة بثياب بيضاء وصلبان سوداء [وكانت رمز (ديوان التفتيش)] ، ويترنم الكهنة ويمرون أمام العرش ثم يقفون ، ثم يمر فريق من الشعب وهم يرتدون ملابس بيضاء حاملين صليباناً سوداء ، فيفعلون مثل من سبق ، ثم يمر المحكوم عليهم بالحرق وقد غطتهم القاذورات والطين والأوحال التي قذفهم بها متعصبة الناس ظانين أنهم يمجّدون الله والدين بقذفهم أولئك المعذّبين .

وكان يحيط — بهؤلاء — السجنانون وجنود الديوان والرجال المنوط بهم إجراء التعذيب ، فإذا ما وصل السجناء إلى الساحة أُصعدوا إلى أكوام من الحطب عالية ، وفي وسط كل كومة صليب مثبت لكي يموت المعذبون وهم ينظرون إلى ذلك الصليب .

ثم يرتقى رئيس المحكمة مرتفعاً أقيم في وسط الميدان — ساحة رينرا — ويأخذ في تلاوة الحكم على معاصر الزنادقة الكفار !!! بصوت جهورى وهو يقول :

إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالاً ونساءً لأنهم [يهود ، أو من المسلمين ، أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكي] ، وأنهم قد استحقوا بالأحكام المقدسة ، وأنهم قد اتخذوا الشيطان عدو البشر ولياً وحرقوا الكنيسة وهم لا يأتون ثمراً .

لذا وجب قطعهم وحرقتهم بالنار عملاً بقول السيد المسيح له
المجد : (من ليس معنا فهو علينا ، وأن كل شجرة لا تثمر وجب قطعها
والقائوا في النار . إن الذنب ذنبهم ، ودمائهم على رؤوسهم) .

وبعد أن ينتهى من تلاوة ذلك الحكم يصرخ أحد الكهنة
باللاتينية : « المجد لسيدتنا والدة الإله ، ومبارك كل مؤمن طائع » .
وعندها يمد الناس أيديهم لأخذ البركة .

ثم يتقدم الكاهن لآخر مرة من المجرمين ويده صليب من العاج ،
ويعرض عليهم التوبة وتقبيل الصليب ، فمن أبى لعنة أبدية ، وإذا
ماسوره الخوف وقبّل الصليب ووعدهم بأن ييوح لهم باسماء غيره ممن
يبحث عنهم (الديوان) ، وأن يُصرّح بما يفكر به ويعلن لهم توبته
واستغفاره ، فعندئذ يعاد إلى السجن مرة أخرى ليتبّتوا من توبته .

(ويقال إنه نذر من خضع من أولئك المساقين للموت)

وعندما يصدر الأمر إلى جلّادهم بإضرام النار ... يعلو صراخهم
وعويلهم ، وتتصاعد روائح شئ من أجسادهم في الجو ... ، وكثيراً
ما كانت جسومهم تظهر وهى تحترق سوداء ؛ وتظل النيران مشتعلة ثلاث
ساعات بلا انقطاع والشعب يرقص حولها والكهنة يسبحون !!! حتى
تستحيل بقايا الخطب والحث رماداً ... ، فينصرف الملك وحاشيته
تشيّعهم دعوات الشعب وبركات القساوسة .

كان جواسيس (التفتيش) ينتشرون في كل مكان وفي كل بيئة
وعدهم ألوف مؤلفة ، وكان منهم كهنة وأطباء ومعلمون ، وكلهم جاد
في البحث عن أعداء الكنيسة الكاثوليكية وأعداء رجالها ؛ فإذا ماوقع
مسكين في قبضتهم زُج في أعماق السجون ويترك فيها ، وربما تُنوسى

أمره ، فلبث فيه إلى ما شاء الله ، والويل لمن يسأل عنه وهو لا يعلم لماذا سجن ، إلا إذا مثل أمام (محاكم التفتيش) وبدىء في تقريره وسؤاله .

وكان رجال الكنيسة ينظرون إلى الاعتراف نظرة ذات مغزى وغرض بعيد ؛ لأنهم كانوا بواسطته يقبضون على أعدائهم ومناوئهم ، وقد أمكنهم أن يجعلوا من الابن جاسوساً على أبيه في حركاته وسكناته ، والأب على ابنه ، والزوج على زوجته ، والعكس ... ، فمن عرف شيئاً ولم يبلغ عنه عدُّ شريكاً في الزندقة والحروق عن الكثلكة واستحق العقاب الصارم ، تبعاً لإحدى مواد قانون (الديوان المقدس) .

وكان الصمت في غرفهم يعدل العمل ضد الديوان جرماً ، وبذلك أوجدوا في كل دار وبين كل أسرة جواسيس لهم ينقلون إليهم أسرار المنازل والبيوت وما يدور بين أفراد الأسرة من أحداث وأسرار تلك الأسرة .

وقد ذكر أن أحد النبلاء أولمَ لبعض أصدقائه الأخصاء مادية ، وكان يعدّ كل واحد منهم الآخر عدل نفسه وفيّاً مخلصاً ، ولما أديرت بنتُ الحان وغابوا عن وعيهم من شدة السكر والعريضة ولم يع كل ما يقول ، عندئذ تفوه أحدهم بعبارة كانت تُعتبر جريمة عند رجال الديوان .. ، فلما كان اليوم الثاني تغيب ذلك المسكين عن أنظار عارفيه وأصحابه الذين علموا بعدئذ أنه أخذ إلى سجن (التفتيش) وكان بعض المدعويين قد نقل ما قاله إلى رجاله .

وحدث أن امرأة نامت وطفلها في سرير وإلى جوارهما كان ينام الزوج ، فتلفظ هذا المسكين بألفاظ مبهمة وهو غارق في نومه ، فما كان من زوجه إلا أن أسرع لأحد قساوسة (التفتيش) في الكنيسة المجاورة لهم (وكانت الكنائس لاتغلق أبوابها ليلاً نهار وتلبث مضاعة)

وأخبرت البلهاء ذلك الكاهن بما حدث ، وأن زوجها يتكلم وهو نائم
بكلام مُبهم لا يفهم ، وبعد أن فرغت من اعترافها أخذت تصلى
بالكنيسة برهةً ، ورجعت إلى دارها ... ولم تَرَّ زوجها المسكين في
سريه .. ، وإذا به قد حُمل إلى سجون (التفتيش) لمحاكمته وتبيان
مايقول .. ، وما كان يُحدِّثُ به نفسه وهو في سريه !!!

ومن قبض عليه ، وكان ذنبه صغيراً ، لطفه رجال (التفتيش)
وحولوه إلى جاسوس لهم يُنقل إليهم أخبار الآخرين ، ومن عرفوا أنه من
هذا القبيل أطلقوا سراحه في الحال خشية أن يوضع في المَطَبَق
(المحبس) فيختل توازن عقله من هول مايرى !!!

ويقال إن كثيرين ممن نزلوا في (ضيافة) تلك السجون المظلمة
كانوا يفقدون عقولهم فيها ويقضون نحبهم داخل تلك المطابق لما
يشاهدونه من آلات التعذيب ومن مناظر رهيبة تقرّز النفوس .

وإذا سيق المذنب للمحاكمة جاءه نفر قد آرتدوا أردية سوداء ،
وتقنعوا بقناع أسود تظهر من خلفه عيونهم .. وكأنما أحاط بالمتهم طائفة
من الشياطين والأبالسة ؛ وإذا ماوقف أمام رجال المحكمة بُدئ في
استجوابه ... ، فيسألونه أسئلة وهم يلزمون السكون ويتأملون أوراق
الاثهام طويلاً ويضعون أمامهم على المائدة صليباً من العاج .. يأمر
المتهم أن يُديم النظر فيه أثناء المحاكمة ولا يحول بصره عنه .. ، ويدعون
عدداً من الجنود والجلادين ، وطبيباً لفحص المتهم وحسب بُضيه إذا أمروا
بعذابه ، ولكي يقرّر رأيه عن حالته الصحيّة وما ينتظر أن يحتمله من
العذاب والآلام .. ، ولكيلا يموت بين أيديهم .. ، وليعترف عمّن يعرف
عنهم شيئاً .. ، من معارفه ورفاقه .

مَذْبَحَة « لَشْبُونَة »

ولقد وصف المؤرخ « دون جومس واسيلفا » مذبحَة (١٥٠٦ م) التي حدثت في « لَشْبُونَة » عاصمة بلاد « البرتغال » أيام الملك « مانويل » - الأول - ، وكانت السبب في إدخال (ديوان التفتيش) إلى « البرتغال » - ، في كتابه : (أسرار ديوان التفتيش) .

[حدثت تلك المذبحة يوم الأحد !! العاشر من شهر أبريل (نيسان) سنة (١٥٠٦ م) ، الموافق السادس عشر (١٦) من (ذى القعدة) سنة (٩١١ هـ) ؛ وكان يوم عيد « الراعى الصالح » !!!]

قال المؤرخ :

(لما أصبح الصباح على مدينة « لَشْبُونَة » العاصمة أخذت أجراس كل الكنائس تُصلِّص صليلاً متواصلاً بطيئاً يدخل على النفس الحزن ويبعث الانقباض في الصَّدر ، رغم جمال ذلك اليوم وشمسه الساطعة ، وصفاء سمائه وزرقتها الجميلة ، وكان يوماً من أيام الربيع البديع .

وإذا ما نظر إنسان إلى العاصمة في التلال المحيطة بها ، رأى بحراً متحركاً من الرؤوس البشرية ، وهم جموع غفيرة من الأهليين جاءوا ليحضرُوا ذلك الاحتفال الدينى ، وقد آغتم كلُّ بعمامة ثباين عمامة الآخر ، وتعصبوا بعصابت مختلفة متنوعة ، فمن اعتنق المسيحية وهو مُرغم كانت عصابته حمراء ، وهؤلاء أجبرهم (ديوان التفتيش) على

الكثلكة ، وكانوا من اليهود والمسلمين من بقايا الفتح الإسلامي ، وأما مَنْ كان من أَصْلٍ مسيحي كانت عصابته أو قُبْعُهُ من غير ألوان .

وَأَجْبَر (ديوان التفتيش) بعضاً من المسلمين واليهود على حضور تلك الاحتفالات ، وكانوا في حالة يُرْتَى لها ، وَتَنَفَّتْ لها الاكباد أَسَى وحسرة ، لما بهم من الدُّل والهوان .

أما جماعة المفكرين الأحرار الذين كانوا يُعَدُّون في نظر الكنيسة زنادقة فَجَرَة ؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالكنيسة ولا يوافقونها على إتيان تلك الأعمال الوحشية ... ، أولئك الأحرار قد هربوا واختبئوا خشية جواسيس (التفتيش) أن يقبض عليهم بوشايتهم ، ويكون موتهم وهلاكهم محققاً محتمماً في مثل ذلك الاحتفال .

وكان ذلك البحر الزاخر من الناس يموج ويعلو كالأمواج ويرتطم عند باب الكنيسة الكبير ، وهناك أُقيم حَوْض كبير من الرُّخام فيه الماء المقدس ، فكان الناس يغمسون فيه أيديهم ويرسمون إشارة الصليب على جباههم ، ثم يتراجع فَوْج ليحلَّ محله فوج آخر للغرض نفسه .

وكان يشاهد وسط ساحة الكنيسة الكبيرة أعيان الشعب ورجال الدين وقد اصطفَّ الحرس عن يميني وشمال ، وكانوا من طبقات الأشراف بشعورهم المذهبة ، وملابسهم الزرقاء المخملية .

وأقيم مَذْبَح كبير وسط تلك الساحة العظيمة ، وقد غُطِّي بالخمَل المذهب ، أما الآنية التي كانت عليه فكانت كلها من الذهب والفضة والبلَّور .. ، كل ذلك لكي تبهر عيون الناس إذا ما وقعت عليها أشعة الشمس .

وأقيم وراء ذلك المذبح وسط الساحة ، صليب كبير جداً ...
عليه صورة المسيح مصلوباً ، وكأنما هو يستعد بقبول توبة الخاطئين
والكفرة ، ومن لم يكن مسيحياً ولا يؤمن بأعمال الكنيسة ...

وإلى جوار ذلك الصليب أقيمت منصّة عليها آثار القديسين من
عظام وصُور قديمة وقد زُيّنَت بالأحجار الكريمة ، ولها أُطُرٌ من الذهب
والفضّة المصقولة الخالصة ، لها لمعان شديد في ضوء الشمس فتضيف إلى
المنظر هيئة ووقاراً وأبهة .

بركة البابا المقدسة

وآجتمعت جماعات من الشعب داخل الكنيسة وخارجها ، وأخذ
يُحدّث بعضهم بعضاً عما كان (ديوان التفتيش) قد أزمع إجراءه في
ذلك اليوم ... المنكود ...

وكان في وسط المذبح نجمة كبيرة أسموها : « نجمة المؤمنين »
أحدثت بها أشعة الشمس لمعاناً يهر الأنظار ويحدث ألماً شديداً في
عيون الناس .. ، المكروهين دائماً على التّحديق فيها .

... وصاح جاهل متعصّب من العامة عندما نظر إلى تلك
النجمة اللامعة صارخاً :
— عجباً ... عجباً ...

وأخذ الناس يردّدون وراءه ندائه ، وكان صوتهم كالرّعد العاصف
المزمجر :

— عجباً ... عجباً ... ، الويل للزّنادقة ...
وقال الكهنة :

— عجباً ... عجباً ... أظهرَ مَجْدَكَ يارب ، وبارك المؤمنين ...

وأخذَ الناس يَقرعون صُدُورهم ، فصاح الكهنةُ قائلين :
— اَرْكعوا يا أهل « لِشُبونة » ... ، اركعوا فقد أَشْرَق نور السيِّلةِ
العذراء ...

وجاؤوا بالصُّلْبَان من داخل الكنيسة وصاح أحد الكهنة مخاطباً
تلك الجموع :

— إن النور الذي تَرَوْنَ ليس بنورِ السيِّدةِ العذراء .. ولا هُوَ من نور
الله ... بل هُوَ نور الشمس وأنعكاسُ أشعَّتِها ، وقد قالت السيِّدة إنها
لا تُشْرِق من نورها علينا لوجود كَفَرَةٍ بَيْننا يستحقُّون مشاهدة النور
الإلهيِّ ، فأرجو الله أن يُزيل أولئك الكُفَّار عنا ... ومن بَيْننا ... هيا
ارْجُوه ...

فصاح الشعب المتعصِّب ، كأنه رجل واحد ، وبصوتٍ هادرٍ
قائلاً :

— الويل للزنادقة ... الويل للكفرة ...

ثم نهضت تلك الألوف المؤلفة وسارت في موكب كبير وأخذوا
يصيحون بالويل والشُّبور وعظائم الأمور ، وبالقتل لكل اليهود والزنادقة
والكفرة والملاحدة ... ، واجتمع الشعبُ على يهوديٍّ فقتلوه شَرَّ قَتْلَةٍ ،
واعترض معترض عليهم ... ، فأسكتوه بخناجرهم .. ، واشتد العجب
والصُّراخ .. ، وسار الكهنةُ في مقدِّمة الجماهير تصحبهم صليبانهم وراية
الخلاص لكي يؤججوا من حماسة الجماهير ... المتعصبة الجاهلة ؛
وأخذت المذبحة تمتد رويداً رويداً إلى أنحاء المدينة ، وأخذ في الهرب من
الموت كلٌّ من يتوقَّع شراً ... ، فكانوا إذا وصلوا إلى البيعة الكبيرة

ليحتموا بها طاردتهم القساوسة حاملي الصُلبان ، فكان لا بُدَّ من وقوعهم
فريسة للموت بيد الشعب الهائج ...

ولما انتصف النهار كانت الطرقات والميادين ملاءى بالجثث هنا
وهناك ، وقد جُمعت في أكوامٍ مكدّسة ، وسار المنادون من قبل (ديوان
التفتيش) وهم يستنهضون الشعب لِقَتْل اليهود وكلّ مقاومٍ للكنيسة ،
وهم يباركونهم إن فعلوا ذلك !!! ويقولون :

— الويل لهم ... ، انهؤا ... ومن لا ينهب معكم فأحرقوه بالنار !!!
وقَتَلَ الشعب الهائج النساء وهنَّ يحملن أطفالهنَّ ... وقتلوا معهنَّ
أطفالهنَّ ؛ وكانوا يدخلون إلى البيوت ليقضوا على فرائسهم ، ثم يحرقون
عليهم دُورهم .

وحاول بعض النسوة تخليص أطفالهم برفعهم فوق رؤوسهنَّ ،
ولكن ... أين .. أين الخلاص ، والموت الزؤام لهم بالمرصاد ، فالشعب
ثائر ... وكهنته تَسْتَحِثُّه لارتكاب الفظائع التي تقشعرُّ من ذِكْرِها
الأبدان .

ولما حلَّ الليل وأرخى سُدُوله ، أمتدَّت المذابح ... ، والكهنةُ
كالضبّاط يقودون الناس لارتكاب المنكرات .. ، وهم يحملون معهم تمثال
العذراء ، وينشلون الأناشيد الدينية باللاتينية ، ويرد عليهم الشعب وهو
يرتل لازمتها بلُغَةً ولهجةٌ مُستنكرة ، أضف إلى ذلك صليل الأجراس
المتوالى ... ، ورائحة الأجساد المشوية ... يحملها دخان الحرائق .

واستمرَّت المذبحة ... ، ومضى اليوم التالي بليّله .. ، ثم اليوم
الثالث ... ، والحالة تزداد سوءاً حتى اضطرت الحكومة للتدخل ،
فبعثت جنوداً لِرَدِّ السفّاكين ، وأعدمت بعض المدنيين شتقاً ذراً للرّماد

في العيون .. ، وإن يكن قد بقي غيرهم استمروا في مذابحهم .
ثم رأى الكهنة أنه لا يجوز للشعب أن يقتل الكفرة بيده من غير
محكمة — ولو صورية — فسعوا لتأسيس محكمة (ديوان التفتيش) في
« البرتغال » ، وبعد بحث في المسألة رضى الملك « جوان »
— الثالث — بتأسيس ذلك الديوان في « البرتغال » .

* * *

الفصل الرابع

- الوثائق التاريخية
- شهود عيان
- آلات التعذيب
- فرديناند وإيزابيلا
- صورة عن التصفية النهائية

مشاهير مجرمى الديوان

اشتهر من رؤساء « الديوان » الذين كانوا يُصدرون الأحكام فى سَبْع مقاطعات فى « اسبانيا » ، :

١ — (تور كويمادا)

٢ — (ديزا)

٣ — (سيزنيووس)

٤ — (فلويرنسيو)

٥ — (مانريكى)

٦ — (تاليو)

٧ — (لوابيزا)

وهؤلاء السبعة كانوا قد أمروا بإحراق عدة آلاف من الناس وهم أحياء ، وأشدّهم قسوة وفضاعة هو أولهم : (توركويمادا) .

مراسم الإحراق !

وإذا ما حُكم بالموْت أو بالخرْق على فرد — أو أكثر — طيف بهم قبل يوم التنفيذ بيومين فى أسواق المدينة وهم مكبلون بالأغلال والأصفاد مطوقين بالسلاسل الغليظة ، تحيط بهم فرقة ، من الجنود تسلّحوا بالسيوف والقضبان الحديدية (على هيئة النبايت) ؛ وفى خاتمة المطاف يُحشر المحكوم عليهم فى سجن واحد استعداداً ليوم التنفيذ .

وتأتى فرقة من جنود الديوان فى منتصف ليلة التنفيذ وعلى رأس
الفرقة عرفاؤهم وقوادهم وجماعة القساوسة فيفتح السجنانون الأبواب
ويخرجون أولئك البائسين ، وعندما يبلغهم (نذير الشؤم) المكلف بأن
ساعة العقاب قريبة لامناص منها ...

وكان المساكين يتلقون الخبر بثبات ورباطة جأش تُدهش رجال
الديوان الذين يكررون النصّح لهم بالإقرار والاعتراف وهم يحمدون الله
على قُرْبهم من الراحة الأبدية التى هى خير من عذاب السجن .

وبعد الانتهاء من طلب الاعتراف وطلب الغفران ، تكلم أفواه
أولئك المساكين ويُلبسون لباس الإعدام الخاص ، وهو لمن حُكِم عليهم
بالموت حرقاً : قميص أصفر غمس فى شحم أو زيت وقطران ورسم
عليه صور شياطين وأفاعى وتنين .. !!؟ ويوضع على رؤوسهم قُبَعات
من ورقٍ عليها مثل تلك الرسوم .

وكان السجناء الآخرون يصحبون المحكوم عليهم وقد آرتلوا لباساً
آخر .

وسبب تلك المصاحبة هو إرهابهم وتهديدهم بمثل تلك المواقف
الرهيبة المناظر المرعبة المخيفة ، إذا هم لم يُطيعوا « الديوان » فيعترفوا
للمحكمة .

ومع أنبثاق الفجر يحضر إلى السجن كل رجال الديوان ليأخذ كل
واحدٍ منهم مكانه ويقوم بما عُهد إليه من عمل عند تنفيذ الحكم .

وعند الساعة السادسة صباحاً يخرج السجناء من السجن إلى
الميدان الذى أمامه ، فيرون سِماطاً قد مُدّ ، ومائلة كبيرة فوقها مالذ

وطاب من شتى الطعام والخمور المعتقة !!! فيؤمرون بالجلوس إليها وتناول آخر فطور لهم في هذه الحياة الدنيا .. ؟!

وسبب تقديم ذلك الطعام والشراب هو أن يخدع رجال (الديوان) الشعب الجاهل المحتشد ، بأنهم يعاملون سجناءهم وغرماءهم معاملة طيبة ، وأن هذا مثال ، مما كانوا يُعطون في سجونهم .

وأى إنسانٍ مُقدِّم على الموت — مثل أولئك التعساء — تكون لديه شهية طعام أو شراب ؟؟؟

إن تلك الموائد — ولاشك — هى لون من ألوان التعذيب النفسى !!!

وكان إلى جانب مائدة الطعام مائدة أخرى عليها أطواق حديدية ، تُوضَعُ فى الرقاب ، وأخشاب توضع فى الفم ، على شاكلة لجام الجياد .

فإذا مارُفعت راية (الديوان) إشارة للبدء فى التنفيذ تقدم الجلاّد من الضحايا وقال لهم :

— [يا ضحايا ديواننا المقدّس !! إن هذه الأطواق الحديدية لرقابكم ، وهذه الكمّامات لأفواهكم ، ويلزم كلاً منكم أن يتقدّم فيضع طوقه فى عنقه وكمّامته فى فمه ...]

أما أردية الرهبان : فملابس حمراء .. وقلائد ذهبية ... ، تسير بهم المواكب والمراكب الفخمة .

ويتقدم الملك ورجال البلاط والسلطة ورجال القضاء والعُوّاد ، ويتوقف ألوف الناس لمشاهدة حرق (الكفار) !! ، وقد هبىء الحطب ، وأعدّ كل شيء لإصعاد المحكومين إلى المحارق .

ويتقدّم رئيس (الديوان) من منصّة الملك الذى يقف له إجلالاً واحتراماً ، هو ومن فى حضرته من أساقفة ؛ ثم يقول للملك والذى يحمل فى يده صليباً :
— يا صاحب الجلالة

بينا تحمل فى يدك هذا الصليب المقدّس ، ترانا ننتظر من جلالتك أن تُقسموا على أن تعضلوا (الديوان المقدس) وأن تثبتوا سلطتنا فى هذه البلاد ...

فيقسم الملك يمينا عليها عليه الأساقفة أمامه ...

ويستمر الرئيس فى القول :

— وأن تقسم يا صاحب الجلالة على أن كل مايعمله ديوان التفتيش وكل مايجريه من الأحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسوليّة الرومانيّة ، وأنه أيضاً مطابق لشرائع بلادكم التى ترمى إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية .

فيقسم الملك أيضاً بما يمليه عليه القساوسة من الأيمان

المغلظة !!

ويستمر الرئيس فيقول :

— ليبارك الله جلالتك ولیمكنكم من الحكم طويلاً فى الأرض مادّمت سنّداً لشرائع (الديوان المقدس) ؛ وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية .

ثم يجلس الملك ، ويتقدم كاتب (الديوان) إلى وسط الميدان — وكانوا يتخيرونه رجلاً كبير الهامة ، ضخّم الجثة ، جهورى الصوت — فيقف على منصّة مرتفعة ويأخذ فى تلاوة صورة الحكم فى ورقة فى يده ، والناس فى صمت ، وكأن على رؤوسهم الطير ...

وبعد الانتهاء من تلاوة الحكم ، يتقدم (رئيس الديوان) ويمنح
الغفران لأولئك المساكين ، ويأمر بترنيل مزمورٍ مَطلَّعه : [ارحمْنِي يَا رَبُّ
كما شئت رحمتك]

فيرتل الناس والكهنة ذلك المزمور .

مكان الحرق أو الشنق !

ومكان الحرق — أو الشنق — عبارة عن أربعة أعمدة ، وأحياناً
عمود واحد ، أو جذع شجرة مرتفع ، وحوله أكوام الحطب من كل
جهة ، على علو ثلاثة أمتار تقريباً من الأرض ، ويكون على هيئة مصطبة
مربعة في أعلاه ، والعمود بارز منها .

فكانوا يوقفون المحكوم عليه إلى هذا العمود ويربطون حبلاً في
رقبته ، ويربط الحبل إلى العمود ، ويلفّ الجلابد الحبل على الرقبة عدّة
مراتٍ ، وفي كل مرّة يشتدّ في الضغط حتى يخنق المحكوم ... ، وأحياناً
كانت الحبال تُشدّ إلى وسطه فقط إذا ماتوسّل المسكين إليهم أن
لا يخنقوه ... بل تُترك النيران تأكله وهو حيّ ... !!

وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود !!

ثم يصعد كاهن وفي يده صليب من العاج يعرضه على المسكين
ليُقبله قبل حرقه ، وذلك قبيل إضرام النار بقليل .

وكل من مات في سجون (الديوان) تُحرق جثته — أيضاً —
كي لا يُعرف له قبر .

وإذا ما انتهى الكاهن من مراسمه أضربت النيران دفعةً واحدة في الخطب ، بينما يترنّم الكهنة ويُصلُّون !!؟ ويبحث جواسيسهم في وجوه الشعب يتفحصونها ، ويستمعون لما يُقال همساً ، فمن تأفف ... أو أظهر عطفاً ... أو أبدى أى إشارة اشمئزاز ... ، ألقى القبض عليه في الحال ، وكثيراً ما كان يُضَمَّ إلى السجناء في الحال !!

كل هذا يحدث والحكومة مُلزَمة بإطاعة رجال (الديوان) .. وإذ أبى حاكم إطاعة أوامر (الديوان) صَدَرَ أَمْرٌ بحرقه من الكنيسة ، فيسقط كل ماله من حُرْمَةٍ ، مهما كان شأنه ، وإذا تمَّ لهم ذلك ، قبضوا عليه مع أسرته وزجُّوا بهم في أعماق السجون ، وعذبوهم العذاب الأليم ، وقد يُقضى عليهم بالموت شتقاً أو حرقاً .

وإذا ماتشفع إنسان بالبابا من أجل إنسانٍ ، بعث البابا باسمه إلى (الديوان) ، ليكون ذلك عند رجال (الديوان) جرماً جديداً ، وجريمةً لا تُغتفر لأنه تشفع فيه : « الأبُّ الأقدس » ...

إذ كانت كل تلك الأحكام الظالمة القاسية ، المعرقة في الوحشية والبربرية ، إنما تصدرُ باسم « الأبُّ الأقدس » — أى البابا نفسه .

بؤرة جواسيس يسوعية

يقول [يوجين بيليئان] في كتابه : « ديوان التفتيش » :

(لقد مرَّ على إسبانيا حين من الدهر تحولت فيه إلى بؤرة جواسيس ووشايات [جزويتية] — يسوعية — هائلة [مثال على ذلك :

أبلغت مسيحية (الديوان) بأنَّ أحد المتنصرين المسمّى :
« خوان مدنيا » قد عاد إلى إسلامه ، وكان ذلك في شهر ديسمبر
(كانون الأول) سنة (١٥٢٨) م — [ربيع الثاني ٩٣٦ هـ] وقالت
إنها كانت تسكن مع أُسرتها سنة (١٥١٠) م في منزل ، وكان هو يقيم
مع ابنه وأبنته وصهره ، فلاحظت أنهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون
الخمور ابداً ، وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط كل يوم
سبت وأحد .

وكان « خوان » هذا رجلاً هريماً جاوز السبعين من عمره ، وكان
يسكن « شقويّة » وصناعتُهُ عمل الأواني النحاسيّة .

فاستدعته (محكمة التفتيش) بيلد « الوليد » لاستجوابه فقال
إنه اعتنق الكثلركة سنة (١٥٠٢) م ، وفي نفس العام الذي نُفي فيه
المسلمون من تلك الجهات ، ولا يذكر أنه مارس شيئاً من تقاليد
المسلمين وعاداتهم ، أما عن امتناعه عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر
فذلك لأنه لم يَعتد ذلك ، وقد نُصّر وهو في سنٍّ متأخرة ، لما كان في
الخامسة والأربعين ، وفي مثل هذا العُمر لايسهل تعود شيء جديد ، وهم
يستحمُّ مساء السبت وصباح الأحد لأن حرفته تضطره لذلك .

وبين السبب الذي دعا المرأة إلى الوشاية في حقّه بأنه حرازات في
نفسها وسوء أخلاقها ، وقرّر بأنها كثيراً ماتكذب ، وأراد الاستشهاد
بعدة متنصرين أمثاله لإثبات مايقول ، فأبت المحكمة أن تستمع منه
شيئاً ، ولم يُفد الرجل تأكيده بأنه شديد الإخلاص للكثلركة ، ولا في
التجائه إلى المجلس الأعلى ، وقرّرت المحكمة إحالته إلى التعذيب ... فإذا
أقرّ بكفره !! كان ذلك سبيلاً لإعادة النظر في أمره ، أما إذا أصرَّ

فجزأؤه الغرامة ، وهَدَّدَتْهُ المحكمة بالتعذيب ... وأخَذَ إلى قاعة التعذيب — فعلاً — وجُرِدَ من ثيابه ، ورغم ذلك كله فإنه أَصَرَ على أقواله وقال بأنه مضطر لنقض مايقول خوفاً .. ، فجلد ... وسير به في موكب حريق ، إرهاباً له ، وقضى عليه بغرامات وأموال يدفعها .

وقبض على شيخ مُتَنَصِّر وهو في سن السبعين سنة (١٥٦٠ م) ، لأنه كان يُطالع كتباً عربية في التوحيد الإسلامي ، ولم ينكر الرجل التهمة ولكنه عارض في اعتباره (كافراً) ، ولم يُفد كلامه وتبرره لأعماله ، وحُكِمَ على الرجل بحرقه وزُجَّ به في السجن حتى يوم التنفيذ ...

ولما كان الشيخ مريضاً ... فقد توفي في السجن .. ، فرؤى أولاً حرق تمثال يرمز له !!! ولكنهم عادوا وقضوا بإخراج جثته من القبر وإحراقها علناً في ... حفلة حريق ؟؟!! ؛ وأن يلحق كفره وإثمه ذكره فتنقى مُلوثته ، وتلحق أسرته فلا يُباح لأحد أبناؤه أن يتقلد مناصب أو أعمالاً .

ثم صودرت أموال الشيخ ... ، وهو الشيء المهم — جداً — عند رجال (التفتيش) ، وشياطين محكمة « مُرسية » .

وبعد ذلك بثلاث سنوات قضت نفس المحكمة بجلد متنصر مائة جلدة وتسييره في موكب حريق إرهاباً له لأنه طعن في قانون أصدره (الديوان) ... ، وذلك باللغة العربية !!؟

وفي السنة الثالثة اتهم شاب متنصر من « أربولة » بأنه ساحر ، وبأنه قد عاد إلى الإسلام .

[وقلما كانت حفلة حريق تخلو من مُتهم بالسّخر في ذلك العصر ،
سيّما في الجهات الشمالية]

وذكر من أبلغوا (الديوان) بأن ذلك الشاب قد أبرأ عِدَّة مريضى
بوسائل غريبة لأنه محالف للشيطان ، فزج به في السجن ، واعترف أمام
محكمة « مُرسية » بأنه عالج بعض المرضى ولكن بغير سحر أو شعوذة
ولمّا بواسطة عقاقير ، أما الحُجُب والتلويز فكان يقصد بها التأثير في نفس
القوم الذين كانوا يعتقدون فيها وما كانوا يعرفون طبّاً ولادواء سواها ، وقال
بأن الشفاء راجع إلى تلك العقاقير ذاتها ؛ ولم يكن مُسبباً عن أدعية
وحُجُب ... ، وعلى العموم فإنه كان أخذ كتاباً عربياً من متنصر آخر
فيه وصف لتعاطى الأدوية كما أن به ذكر بعض الأدعية والتعاويد .

وقصد رجال المحكمة إلى اعترافه بأنه محالف للشيطان وأنه ساجر
[طبعاً] إذا اعترف بذلك واستعمل معه كل الوسائل لحمله على ذلك
حتى طمع في العفو باعترافه بأنه حليف الشيطان ، ولذا فهو يأسف على
عمله وأنه يرجو من القضاة عفواً وصفحاً ...

ولمّا نال قضاؤه ماكانوا يبيّعون من اعترافه أمروا بجلده مائتى جلدة
وبإرهابه بواسطة تسييره في موكب حريق !! ، وحكموا عليه بخمس
سنين في الأشغال الشاقة من أعمال السُّفن .

وحُرقت مُتنصرة سنة (١٥٧٥ م) لاثامها بالكُفر والإلحاد ، وقد
أجبرت على الاعتراف بذلك تحت تأثير التعذيب في سجن
(الديوان) ، ثم عادت فأنكرت اعترافها ، ولم يُقدّر كل ذلك امام قسوة
قلوب رجال (الديوان) .

وكل مَنْ تقدَّم للديوان بالدَّسِّ في حقِّ غيره لإهلاكه وتعذيبه ،
أمكنه ذلك .

تهم غريبة توجه لبقايا المسلمين !!

من التهم الغريبة !! أن فلاناً أنشد أغاني عربيّة !! أو أنه يُكثر من الاستحمام كما هو عند المسلمين !! أو لدفاعه — ولو بكلمة واحدة — عن « محمد بن عبد الله » — ﷺ — !! أو لتكفين ميتٍ بأثواب جديدة ، أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ وصَبْغ اليَد بالخصاب !! أو لإحراز كتبٍ عربيّة !! أو لقيامه إلى الصلاة !! أو صَوِّمِهِ !! أو لوضوئه !! أو لوجود أوراق باللّغة العربيّة أو قرآنٍ عند المتهم ... ، فكان العقاب شديداً من إرهابٍ وحرِّقٍ وجلْدٍ ومصادرة وتعذيب وتشهير ... بإرهاب المتهم حماراً وقد علّق بظهره لوحة فيها اسمه وثُهمته ... ثم يُطافُ به في أرجاء المدينة ...] — انتهى —

شهود عيان

وكتب [الكولونيل « ليمونسكى »] أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال :

[كُنْتُ في سنة (١٨٠٩) م مُلحقاً بالجيش الفرنسي الذي كان يقاتل في إسبانيا ، وكُنْتُ مع فرقتي — من الجيش — الذي احتل « مدريد » — العاصمة — ، وكان الامبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة (١٨٠٨) م بإلغاء (دواوين التفتيش) في المملكة الاسبانية ، ولكن هذا الأمر أهمل ولم يُعمل به بسبب الحالة الحرية والاضطرابات

السياسية التي كانت سائدة ذلك الوقت .

وعلى ذلك صمّم رُهبان « الجزويت » — اليسوعيين — أصحاب ذلك (الديوان) أن يقتلوا — أو يعذبوا — كل فرنسيّ يقع في أيديهم انتقاماً من ذلك القرار ، وذلك لإلقاء الرُّعب في قلوب الفرنسيين بطريقة تضطّرهم إلى إخلاء البلاد ... ، ليخلّوا لهم الجوّ .

وبينما أُسيرُ في إحدى الليالي بين الساعة العاشرة والحادية عشرة في شارع من شوارع « مدريد » ، لا يمرّ فيه الناس كثيراً ، إذا باثنين مسلّحين قد هجّما عليّ يريدان قتليّ ، فدافعتُ عن نفسي دفاع المستميت ، ولم ينجّني منهم إلّا سرّيّة فرنسية قادمة كانت تقوم بدورياتها في المدينة ، وكانت السريّة من الخيالة تطوف أبلد طول اللّيل بالمصاييح لحفظ النظام .

ولمّا شاهد القاتلان ذلك لاذا بالفرار .. ، وتبيّن لنا أن هذين الرجلين من جنود (ديوان التفتيش) ؟؟!! عرفنا هذا من ملابسهما المميّزة .

فأسرعتُ إلى المارشال « سُولْت » — حاكم « مدريد » العسكري حينذاك — وأطلعتُه على ماحدث .. ، فغضب المارشال وقال : [أنا لأشكّ بأنّ من قُتل ويُقتل من الجنود كل ليلةٍ إنما يكون بأيدي أولئك الأشرار ، ولا بُدّ لنا من معاقبتهم وتنفيذ قرارا الامبراطور ... ، وآلان ... لك أن تأخذَ معكَ ألف جندي وأربعة مدافع وتهاجم دير (ديوان التفتيش) وتقبض على أولئك الرُّهبان الأبالسة ، هذا إذا رأيت أن ماينسب إليهم من الفظائع حقيقيّ .. ، ولنقتصّ منهم بمحاكمتهم أمام مجلس عسكريّ] .

دير ديوان التفتيش

وعند الساعة الرابعة صباحاً ركبْتُ على رأس تلك الحملة وقصدنا دير (ديوان التفتيش) ، وكان يَبْعُدُ خمسة أميالٍ عن مدينة « مدريد » ... ، فلم يَدْرُ الرُّهبان إلاَّ والجنود تحيط بديرهم والمدافع منصوبة عليه .

وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخَم أشبه بالقلاع ، وله أسوار عالية جداً تحرسها فرقة من جُنْد اليسوعيين ؛ فتقدَّمتُ من باب الدير وخاطبت الحارس الذى كان واقفاً على السُّور فوق الباب وأمرته باسم الامبراطور « نابليون » أن يفتح الباب ... ، وظَّهَر لى أن هذا الحارس قد أكتفت إلى الداخل وأخذ يكلم أشخاصاً لانراهم .. ، ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص ، ثم انهالت علينا نيران البنادق من كل جهة ، فقتل بعض رجالى وجرح البعض .. ، عندئذ أمرت الجنود أن يهاجموا الدير ويقتحموه عنوةً .. لأن إطلاق الرصاص من « الجزويت » كان بمثابة رفض ، وأنهم لن يفتحوا الباب إلا بالقُوَّة ...

وانهال الرصاص على الباب ، فأخذنا بإطلاق المدافع على أسوار الدير .. وعلى الباب .. ، وجاء الجنود بأخشاب سميكة اتخذوها متاريس لهم تقيمهم رصاص جنود (التفتيش) الذى انهمر كالمطر الغزير .

وبعد أن دامت المعركة نصف ساعة فتحت ثغرة واسعة فى الحائط دخل منها الجيش وأمتلك الدير ، وكنت أنا وبعض الضباط الآخرين أول الداخلين .

(العصابة) اليسوعية

فأسرع زُهبان اليسوعيين للقائنا مرحبين : بوجوهٍ باشّةٍ ،
مستفهمين عن سبب قدومنا على هذه الحال .. !! كأن لم يكن من
شيءٍ بيننا !!؟ ولم تكن مَوقعة !!؟ ولم يكن قتال بين جنودنا
وجنودهم !!؟ ثم انهالوا على جنودهم تعنيفاً وتأنيباً لمقلومتهم لنا ، وقالوا
لهم : إن الفرنسيين أصدقاء لنا ، فمرحبا بهم !!؟

ولكن لم تَنظُل حيلتُهم علىّ ، بل أمرت الجنود بالقبض على أولئك
القساوسة المنافقين ، وعلى جنودهم ، لتقديمهم لمجلس عسكري .

وأخذنا نبحث عن قاعات التعذيب المشهورة ، التي كان بها من
صنوف التعذيب ما تَقشَعُرُّ من ذكره الأبدان وتَقزُّزُ منه النفوس .

وطُفْنَا بِغُرْفِ الدَّيرِ فرأينا ما بها من أثاثٍ فاخر ثمين ، ورياش
وكراسي هزازة ، وسجاجيد فارسيّة ، ولوحات ثمينة نادرة ، ومكاتب
كبيرة ... ، وقد صُنعت أرض تلك الغرف من خشب (المَوجَنَة)
المصقول المدهون بالشمع ، وبطريقة عجيبة ...

وكان شذا العطور يعبق في أرجاء تلك الغرف ، فهي أشبه بأبهاء
القصور الفخمة الكبيرة التي لا تكون إلا للملوكِ قَصُروا حياتهم على الترف
واللهو .

وعلمنا أن تلك الروائح العطريّة كانت تنبعث من شمعٍ مُوقدٍ
دائماً أمام صُورِ رجال تلك (العصابة) !! اليسوعيّة ؛ ويظهر أن
الشمع قد عُجِنَ بماء الورد .

وكان مجهودنا يذهب سُدىً في محاولة العثور على قاعات التعذيب ، بعد أن فَحصنا كل غُرْفِ الدير وممراته وأقبيةه ، ولم نجد شيئاً يدلُّ عليها ... ، فعزمنا على الخروج من الدير ، وكذنا نقنع بتقديم أولئك اليسوعيين أمام المجلس العسكري فقط ، بتهمة المقاومة ، وكانوا يقسمون ويؤكدون أن وجود مايشاع عنهم من أمورٍ في ديارهم ليس إلا تهمة كاذبة باطلة .. ، وأنها حديث خرافة .. ، ولكنهم يتحملون ذلك في سبيل الله ؟؟؟

وصار زعيمهم يؤكد لنا مايقول بصوتٍ خافت وهو خاشع الرأس ، وعيناه مغرورتان بالدَّمْعِ الهتون ، وهى — ولاشك — دموع التماسيح ... وكادوا يخدعوننا ... ، فأعطيت الجنود الأوامر بالاستعداد لمغادرة الدير ، فاستمهلنى « الليفتنانت — دى ليل » وقال : — أَسْمَحْ لى يا حضرة « الكولونيل » أن أقول لك إن مهمتنا لم تنتهِ حتى الآن ...

فقلتُ له : ألم نفتش كل الدير ولم نعثر على شيء ؟ ففيم تُرَغِبُ ؟ قال : أجل قد فتشنا ... ، ولكننى أرغب فى فحص أرض هذه الغرف ، وأدقق فى فحصها وامتحانها ، فإن قلبى يحدثنى بأن السرّ هو فى الأرض !! وأن هذه الغرف الفخمة تستر تحتها ما جئنا نبحث عنه ... وعندها نظر الرُّهبان بعضهم إلى بعض نظرات ذات معنى . وأذنت للضابط بالبحث .

فأمر الجنود — عندئذ — برفع الأسيطة والسجاجيد عن الأرض ، فرفعت ، ثم أمرهم بأن يصبّوا ماءً بكثرة فى أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا ... ، وكنا نرقب الماء فإذا بالأرض تبتلعه فى إحدى الغرف ، وإذا به يتسرّب إلى أسفل ، فصَفَّقَ الضابط « دى ليل » من شِدَّةِ الفرح .

وقال : هاهو ذا الباب ، انظروا ... ، فنظرنا ، وإذا الباب قد ظهر ، وهو قَطْع من أرض الغرفة يُفْتَح بطريقة شيطانية ، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس .

وأخذ الجند في تكسير ذلك الباب العجيب بأعقاب بنادقهم ، وأحاطت فرقة من الجند بعصابة اليسوعيين الذين اصفرَّت وجوههم وعلتها غيرة ، وخارت قواهم من الفزع والهلع .

وفُتِح الباب ...

فظهر لنا سُلَّم يؤدي إلى باطن الأرض ، فأسرعتُ وأخذتُ شمعة كبيرة ، أطول من متر ارتفاعاً ، أنيرت أمام صورة أحد أولئك الرؤساء لحاكم (التفتيش) ورؤساء (الديوان المقدس) .

ولما هممت بالنزول وضع أحد اليسوعيين يده على كتفي متلطفاً ، وقال لي :

— أرجوك يا بني أن لاتحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال ، لأنها شمعة ، مقدسة !!؟؟

فأجبت : هنا حق — ياهنا — ... فإنه لايليق بيهى أن تتنجس بلمس شمعتكم الملوثة بدماء الأبرياء ، وسرى الآن من هو النجس منا ، ومن منا القاتل السفّاك ؟!

قاعة المحكمة وعرش الدينونة

وهبطت على السلم يتبعني بقية الضباط والجنود شاهري سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج ، فإذا بنا في غرفة كبيرة مربعة ، كانت

تسمى عندهم بقاعة المحكمة ، في وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة رُبطت بها سلاسل كانوا يقيدون فيها فرائسهم التي تكون رهن المحاكمة .

وأمام ذلك العمود « عرش الدينونة » كما كانوا يسمونه هم ، وكان عبارة عن مصطبة (منصّة) عالية يجلس عليها رئيس (ديوان التفتيش) ، وإلى جانبي ذلك المقعد المرتفع أماكن لجلوس جماعة القضاة ، وكانت أوطأ قليلاً من المقعد .

غرف آلات التعذيب

ثم توجهنا لغرف آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية ، وقد امتدت كل تلك الغرف إلى مسافات كبيرة ، وكانت كلها تحت الأرض ، وقد رأينا بها ما يستثير النفس ويدعوها أن تتقرّر ما عاشت ، وأمتدّ بها العمر .

رأينا غرفاً صغيرة بحجم الإنسان ، بعضها عمودي ، وبعضها أفقيّ ، فيبقى سجين العمودية فيها واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ، ويبقى سجين الأفقية ممدداً حتى يموت .. ، وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى ويسقط اللحم عن العظم ...

ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية فتحت كُوة صغيرة إلى الخارج .

وقد عثرنا على عدّة هياكل بشريّة لاتزال في أغلالها سجينه مقيدة ؛ أما السجناء فرجال ونساء ، تتفاوت أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين .

وقد تيسر لنا فكك بعض السجناء الأحياء من أغلالهم وهم على آخر رمق من الحياة ، وقد جُنَّ بعضهم خوفاً وهلعاً ... لكثرة ملاقوا من عذاب .

وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم ، وقد اضطّر الجنود أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها النساء السجينات .
وأخذ السجناء إلى النور تدريجياً لئلا تؤثر مفاجأة النور على أبصارهم .

وقد أخذ السجناء يكون فرحاً وأخذوا يقبلون أيدي الجنود وأرجلهم لأنهم أنقذوهم وأعادوهم إلى الحياة بعد الموت المحقق والعذاب الأليم .

آلات التعذيب !!

ولما انتهينا من ذلك ، توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، فرأينا هناك ماتقشعر لهوله الأبدان :

فقد عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم ؛ وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، كل ذلك على سبيل التدرج حتى تأتى الآلة على كل الجسد فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة .

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً ، توضع فيه الرأس بعد أن تربط أيدي وأرجل صاحبها بالسلاسل ، فلا يقوى على الحراك ، وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد ،

فتقع على رأسه بانتظام ، في كل دقيقة نقطة .. ، وقد جُنَّ الكثيرون بسبب ذلك اللون من العذاب .. قبل الاعتراف ؛ ويبقى المعبذب على حاله هذه حتى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تُسمّى : « السيِّدة الجميلة » !!! وهى عبارة عن تابوتٍ تنام فيه صورة امرأةٍ جميلة ، مرسومة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة .. ! وكانوا يطرحون المعبذب الشاب فوق هذه الصورة ويطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه — بعُنف — ، فتمزق السكاكين جسم الشاب وتقطعه إرباً إرباً ...

كما عثرنا على عدّة آلاتٍ لِسَلِّ اللِّسان ، ولتَمزيق أُتداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب حديدية حادة ، ومجالد من الحديد الشائك لِجَلْدِ المعبذين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظم . وصل خبر هذا الهجوم على دَيْر (ديوان التفتيش) إلى « مدريد » ، فهبَّ ألوف من الناس ليروا ما حدث ، وخيل إلينا أنّه يوم الحشر .

ولما شاهد الناس صنوف التعذيب وآلاته الجهنمية ورأوها رأى العين ، جُنَّ جُنُونهم ، واشتعلوا بنيران الغيظ ... وكانوا كالذى مسّه الجنّ ... فأمسكوا برئيس أولئك اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام ... فلم تُشَفِقْ عليه ... وذقت عظامه دقاً ، وسحقها سحقاً ، وأمسكوا كاتم سيرة وزفوه إلى السيِّدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين تمزيقاً .

ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بباقي طعمة اليسوعيين وبقية الرهبان ما فعلوه أولاً .

ولم يمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهباً من تلك العصاية الآثمة ؛ ثم أخذ الشعب ينهب ما في الدَّير ، وقد عثرنا على أسماء ألوف من الأغنياء في سجلات (الديوان) السريّة ، وهم السُّرّة الذين قضوا عليهم لابتزاز أموالهم ؛ وكانوا يضطرونهم إلى كتابة إقرارات تُحوّل بموجبها أموالهم إلى اليسوعيين ، فإذا ماتمّ لهم ذلك عذبوهم وقتلوههم بآلاتهم .

أعظم يوم تاريخي شهده العالم بعد يوم الباستيل :

ويمكنني أن أقول بأن ذلك اليوم كان أعظم يوم تاريخي شهده العالم بعد يوم (الباستيل)^(١) ، وقد عانق الآباء أبناءهم ، والأبناء آباءهم ، بعد مامرّ بهم من أيام العذاب ، وقبّلت النساء بناتهن اللواتي قضى على عفافهن في تلك المطابق اغتصاباً .. ، وأنهار التّقبيل على أيدي وأقدام الجند ، خصوصاً من النساء اللواتي آتتهن طعمة (الديوان) — المنجّس — عفافهن واغتصبوهن في تلك المطابق اغتصاباً .

والحق أقول إن القلم واللسان ليعجزان عن وصف مارأيناه في ذلك الدَّير من الفظاعة والبربريّة التي لا تخطر على عقل بشر سوى الشياطين الذين قد يعجزون هم أيضاً عن الإتيان بمثل هذه الأعمال . [

[انتهى]

(١) يوم الهجوم على سجن (الباستيل) في فرنسا (١٤) يوليو سنة ١٧٨٩ م ؛ ذكرى الثورة الفرنسيّة .

« فرديناند » و « إيزابيلا »

اتحدت مملكتي « الأراغون » و « قشتالة » سنة (١٤٧٩) م — الموافق (٨٨٤) هـ ؛ وكان « فرديناند » — الكاثوليكي المتعصب — ملكاً على الأولى ، و « إيزابيلا » ملكة على الثانية .

وقد وقعت الملكة تحت تأثير « توماس دى تركومادا » ، أحد الرهبان « الدومينيكيين » ؛ وكان قسيساً لها قبل أن تكون ملكة ، وحملها يوماً على أن تعدّه بتكريس حياتها لاستئصال (الكفرة) إذا هي وليت الملك .

وقد عُرف عن ذلك الراهب تعصبه الشديد وبُغضه لكل من خالف الكثرة ، ويستخدم كل وسيلة لاستئصالهم ؛ وانقادت الملكة إلى إرشاداته وتوجيهاته !! وأقنعت زوجها ، واستصندراً أمراً من البابا « سكوتوس » — الرابع — لإنشاء (ديوان مقدس) في قشتاله ، فلم يتأخر البابا عن إصدار أمره في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة (١٤٧٨) م ، الموافق : رمضان سنة (٨٨٣) هـ ؛ ثم أنشئ (ديوان) في « إشبيلية » في سبتمبر (أيلول) سنة (١٤٨٠) م الموافق : رجب سنة (٨٨٥) هـ .

ولقد أثر عن « إيزابيلا » قولها :

[إن حُبَّ « المسيح » و « العذراء » جعلني أميل لارتكاب الأعمال المؤدية إلى البؤس والشقاء وخراب البلاد والمُلك] .

وقد عُيِّن « توركومادا » رئيساً عاماً لـ (ديوان التفتيش) بأمرٍ من البابا « بنقو » — الرابع — سنة (١٤٤٣) م ، الموافق (٨٤٧) هـ ؛ فكان

أول رئيس لهذا الديوان ؛ وكان مركز سلطته في مقاطعتي « الأراغون » و « كستيجا » ؛ وهو من أسرة عرفت بالقسوة والشدة ، وكثيرا ما استخدم أجداده كجلادين في بلاط الملوك الأولين ، ولكنه فاقهم فظاعة وقسوة وجبروتا ، حتى يُقال بأنه هو الذي تفتن في أنواع التعذيب ... من ناحية الأسلوب والآلة .. !!

وسبب موته أنه أراد الاعتداء على عفاف فتاة جميلة ، ثم يأمر بقتلها بعد ذلك كما جرت العادة .. ، فما كان منها إلا أن دسّت له السم في حمري يدها .

أما البابا « بنتو » — الرابع — الذي عيّن « تركومادا » — فقد أدخله بعد موته — على هذه الصورة — في حظيرة القديسين ؟؟؟

وقد ظلّ ذلك الشرير سبع عشرة سنة في إسبانيا ، يسرح ويمرح ، حرق في أثنائها سبعة عشر ألف شخص وهم على قيد الحياة .

ولما مات ذلك العاقي أصدر البابا أمره بأن تكون (محكمة التفتيش) مختلطة من جميع طبقات الرهبان ، وأن تصدر الأحكام باسم البابا ، ومن ذلك الوقت أطلق عليها اسم (المحكمة المقدسة) ، وكان ذلك سنة (١٤٨١) م الموافق (٨٨٦) هـ .

وقد صدر مرسوم ملكي من ملكي إسبانيا « فرديناند » و « إيزابيلا » بتأسيس ذلك (الديوان) و (المحكمة المقدسة) وأن تزاوّل أعمالها البربرية في كل الجهات التابعة لهذين الملكين .

وكان الرهبان والراهبات في ذلك العهد يُدعَوْنَ بـ « آباء الإيمان » ؛ وكان المرسوم يُعطى رجال الكنيسة الحق في إدارة شؤون ذلك (الديوان) .

صورة عن التصفية النهائية

قُبض على مُسْلِمٍ وسيق إلى المحاكمة .. ، وكان ثبات ذلك الرجل أمام هيئة المحكمة مدعاة إلى زيادة حفيظتهم عليه والمبالغة في تعذيبه .
أوقف أمام هيئة المحكمة فقال الرئيس الجنود (التفتيش) :
— ضَعُوا الحديد في أَصَابِعِهِ وقَدِّمُوهُ إلَيْنَا ... ،
ففعلوا .

ولم يستطع ذلك المسكين الوقوف لِشَلَّةِ الأُلم فسقط مغشياً عليه ، فقال الرئيس :
— أَوْقِفُوهُ ...
فأجاب أحد الحراس :
— إنه لا يقوى على الوقوف .
فقال الرئيس :
— إِذَا .. ضَعُوهُ في التابوت فإنه يقف فيه !!

فوضعه في التابوت ، وهو صندوق مرتَّب فيه مسامير من الداخل ، فاضطرَّ المَعْدَّب أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف ، ثم رفعوا الكمامة التي كانت على فمه ليتمكن من الإجابة على الأسئلة ، وعندها تنفَّس المسكين الصَّعْدَاء طويلاً ؛ فأمر الرئيس بأن يسقوه قليلاً من الخمر ، فلما شرب قليلاً منها تفتحت عيناه ، وحدث لديه شيء من الانتعاش ، وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والاستجواب فأبلغ ذلك هيئة المحكمة .

• فوجَّه إليه الرئيس الأسئلة التالية :
— ما اسمك ؟

- أنا مسلم مغربي
- كلا ... بل أذكر اسمك المسيحى الجديد
- (صموئيل فرناندس) ؟!!
- إن صموئيل هذا .. اسم يهودى
- لقد كان المسيح يهودياً أيضاً
- قل صدقاً : كم عُمرُك ؟
- ثلاث وثلاثون سنة مثل عُمر السيد المسيح .
- إذاً أنت مستعد للتضحية ؟
- بإذن الله ...
- أقبَل ذلك وأنت راضٍ ؟
- نعم
- إذاً قل : من هو إلهك ؟
- هو إلهكم نفسه .
- وما اسمه ؟
- الله ... فى سماء ملكوته
- بل قل معى : يسوع المسيح ..
- فأجاب الرجل وهو يرتعد :
- يسوع المسيح
- يظُهر عليك أنك قد تأثرت من ذكر هذا الاسم ؟!! أليس كذلك ؟
- أجل ...
- وما نوع ذلك التأثير ؟
- تأثير داخلى
- وماذا قال لك هذا الصَّوت الداخلى ؟

- لا أدري .. فإني الآن لا أدري ماذا أقول
- قُلْ ما فكرت فيه بصوتٍ مسموع
- لا أقدر على الكلام لأني متألم جداً من الضغط على صدري .. ،
- والكلام لا يكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة .
- ستنظر ذلك جيداً جداً .

فنظر الكاتب إلى الرئيس مستفهماً عما يقصد ..
فقال الرئيس :

— أظن أن ضَرْبَ وجهه بالسوط يمكنه من الكلام .

وسرعان ما جذبته أحد رجال التعذيب ، وجعل يجلده على وجهه بجلدةٍ سميكةٍ مبللةٍ بالماء .. ، فاحمرَّ جلده وجهه ، وكاد يخرج منه الدم ، وجعل يتلوى من الألم ، فقال له أحد الكهنة :

— تعال يا « صموئيل » ... ، تقدّم واعترف أمامي بكل خطاياك ، وقُلْ لي : بماذا تفكر الآن ؟ قُل الحق قبل أن يحلّ بك القصاص .. تقدم يا بني .. لقد كان اسمك « محمد » قبل اعتناقك المسيحية فلماذا سميت نفسك « صموئيل » ولم تختار اسم قديسٍ مسيحي كبطرس وبولس ؟

ثم نظر إلى الكاتب وقال : اكتب :

- أين ولدت ؟
- في « طنجة » ...
- أإسباني أنت ؟
- كنت إسبانياً
- ولماذا تقول كُنت ؟

- أقول هذا لأني لست بإسباني لكي أظل إسبانياً إلى الأبد
— وأبوك ؟
— ليس لي أب فإنه قد مات
— وأمك ؟
— ماتت أيضاً
— وأين ماتا ؟
— في سجون (ديوان التفتيش)
— أحرقاً ؟
— كلا بل تعذيباً حتى تهرأت أجسادهما .. فماتا من شدة العذاب !
— وبماذا أنهما ؟
— لقد كانا بريئين
— هل لك إخوة ؟
— أظن ذلك .. !!
— كيف تظن ؟! أين إخوانك وأين يُقيمون ؟
— بل قل لي أنت أولاً : أين ماتوا وأين قبورهم ؟
— يظهر أنك تريد أن ينفذ صبرنا معك ... فسنبدأ بتعذيبك ...
— يسوؤني هذا ...
— إذا ... أنت لاتريد أن تدلنا على البقية الباقية من إخوانك ولاعن مكان إقامتهم ، إن (الديوان المقدس) لا يخفي عليه أن لك إخوة هم على قيد الحياة ، وهم يُصلّون في مساجد خفية ، ألا تعلم أين هم ... ؟
— لا أعلم ...
— لما صدر الأمر بسجنهم هربوا ... أفلا تعلم إلى أين ؟
— كلا ...

- تذكر جيداً لعلك تعلم !!
- كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل ..
- يجب أن تساعدنا على معرفة مقرهم حتى نخلص نفوسهم .
- على غرار ما ستفعلون معي الآن .
- أنت تسكن مع امرأة ... فمن تكون هذه ؟
- زوجتي ...
- كيف يمكنك ادعاء هذا ؟
- هي تريد أن يكون الأمر كذلك
- علمنا أنها مسيحية وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي
- وتبذ العفاف ، فيجب عليك أن تسلم زوجك للديوان المقدس .
- هل هذا هو العفاف والدين عندكم ؟
- نحن لانجادلك بل نأمرك ..
- إذا كنتم تأمرونني فأولى بكم أن تقتلوني .. ، وهذا كل مايمكن أن تفعلوه ، وعندئذ سوف تُصلى زوجتي من أجلى .
- وبنك ياشقى ... ألا تزال مُصراً على إنكارك ؟ أصلح هفواتك وخطأك ياهنا وإلا فإنك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً ...
- والآن فلنتيم أعمالنا أعمالنا ، قل لنا أين إخوتك وأين زوجتك ؟
- هم في مكان أمين ...
- ألا تريد أن تعترف بأكثر من هذا ؟
- إني أعترف إلى الله خالقي فحسب ... أنتم تعذبونني والله يعلم أنى
- برىء
- سوف تساق إلى التعذيب الآن فالأولى لك الإقرار
- لا يعنيني العذاب ... فأني جسمي مخدّر لايشعر

— إذا لم تجب على ماسألك الآن فسوف تُسقى الماء رغم أنفك ، يُدفع إليك من خلفك حتى يُقضى عليك .

— لقد احترقت رجلاى بناركم فلم أمت حتى الآن ...
فقال أحد القساوسة — وهو يتصنع الرقة والعطف عليه ، بصوت متكلف :

— اعلم يا بُنى أننا لا نرثى من وراء تعذيبك إلا إلى الإقرار عن بقية أهلك الذين تُحبهم وبذا تُنجى نفسك ونفوسهم ، ونصعد بكم إلى السماء !!!

فأجاب الرجل :

— إذا صعدنا نحن إلى السماء فمن يهوى بكم أنتم إلى الجحيم وبئس القرار ؟؟

عندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعتدين المرتدين الثياب السود ، الواقفين أمام آلات التعذيب .. ، فهجموا عليه وأخذ البعض منهم يضع الحبال فى يديه وصدره معاً ، ويلفها لفاً ، وآخرون ربطوا رجله بحبل دقيق ثم وضعوه على مائدة خاصة وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً ؛ وتقدم أحد هؤلاء المعتدين وهو يحمل جرة ملاء بالماء ، وتقدم آخر وفى يده قُمع ، فقال الكاهن الموكل بوعظ الخاطئين ، والصلاة لأجلهم :

— والآن يا « صموئيل » لماذا تضطربنا يا بُنى إلى تعذيبك وإحداث هذه الآلام لك مادمت قادراً على الخلاص من هذا كله إذا ماقلت لنا أين إخوتك وأين زوجتك ؟؟

— لا يمكننى أن أقول لكم شيئاً عنهم لأنى قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم وأسلمهم لديوان التفتيش .

فقال الكاهن :

— ولكننا لانعتقد أنهم يرضون لك هذا الحال وهذا العذاب الأليم .. ،
إن هذا السكوت لا يُعدُّ أمانة الآن بل يعد جنوناً ... قُلْ قُبْلُ أَنْ يَبْدَأَ
الرَّجُلُ بتعذيبك ..

— إننى أشكر لكم إذا ماقتلتمونى مرةً واحدة .

— دُعْ عنك هذا العناد يارجل ، وأعلم جيداً أنك سوف تموت دون أن
يعلموا بأنك مت فداءً لهم ، والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً أو
آجلاً فتكون قد مِتَّ من غير فائدة ، ومع هذا فإن زوجتك هذه سوف
تنساك لامحالة وتتزوج سواك ... وربما تكون قد خانتك الآن ... !!

فصاح الرجل :

— صه أيها النَّذلِ الحَقير ، وأعلم جيداً أن عذابكم لجسدى لا يعينى
قدر تَعْذِيبِكُمْ بكلامكم هذا الذى تلفظه ألسنتكم القدرة السامة ...
وبكى الرجل وبدعوا بتعذيبه فكان صراخه يملأ القاعة ، ولكن
ليس من مُنْقِذ ، بيد أن القُسس كانوا وقوفاً يُصلُّون ويدهم كُتُبُهُمْ يرتلون
منها ...

وبينما هم يعذبون المسكين على هذه الصورة سيقَتْ سيِّدة أمام
المحكمة وكانت رابطة الجأش ، ذات شجاعةٍ مُذهِشة ، ونظر إليها رئيس
المحكمة نظرات حادّة ، كلّها الحقد والغضب والانتقام ، وسألها :
— ماأسمُك .. ياهذه ..

— « سوزانا فرناندس »

— وسمع زوجها المعذب فأنّ أنيناً طويلاً ، وعرف أنهم قبضوا على زوجته ،
وأنها وقعت بين مَخالب وأنياب أولئك الوحوش العُتاة .. ، أما هى فلم
تتمكن من معرفة الذى يُعَذَّب ، بسبب الظلام الدامس الذى كان يلفّ

المكان .. ، ولكنها عندما سمعت الأنين التفتت لترى مَنْ يئنّ .. ،
عندها بدأ رئيس المحكمة باستجوابها وعيناه تقدحان شرراً :

— بَنْت مَنْ أَنْتِ ؟

— لَا أَعْلَم

— أَلَا تَعْلَمِينَ مَنْ أَبُوكِ ؟

— كَلَا ... إِنَّمَا رَأَيْتِ ذَاتَ مَرَّةٍ رَجُلًا مَارًّا بِحَيِّ « تَرِيَانَا » فَقَالُوا لِي :
هَذَا أَبُوكِ

— أَهَذَا كُلُّ شَيْءٍ ؟؟

— نَعَمْ

— وَمَا اسْمُ ذَلِكَ الرَّجُلِ ؟

— قِيلَ لِي إِنَّ لَهُ اسْمَيْنِ : الْأَوَّلُ : « الرَّاهِب » وَالثَّانِي : « الرَّجُلُ
المُهَيِّج » !!

— وَأَمَّا مَنْ تَكُونِ ؟

— هِيَ أُمِّي ...

— وَأَيْنَ هِيَ ؟

— مَاتَتْ

— وَأَيْنَ مَاتَتْ ؟ هَلْ سَقَطَتْ فِي الْوَادِي الْكَبِيرِ ؟

— كَلَا بَلْ قَتَلْتُ قَتْلَ الْعَمْدِ .

— وَكَيْفَ كَانَ هَذَا ؟

— إِنَّمَا مَاتَتْ جَوْعاً فِي سُجُونِ (دِيْوَانِ التَّفْتِيشِ)

— وَأَيْنَ كَانَتْ تَسْكُنُ قَبْلَ أَنْ تُسْجَنَ ؟

— مَعَ رَجُلٍ مِنْ بَقَايَا الْعَرَبِ ، كَانَ يَمُرُّ بِيَابِنَا كُلَّ يَوْمٍ ، وَقَدْ عَزَمَ أَخِيْرًا
عَلَى أَنْ يَسْكُنَ مَعَهَا إِلَى الْأَبَدِ ، فَسَكَنَ ... وَسَأْتِضِمُّ أَنَا إِلَيْهِمَا
أَيْضًا ...

— وهل مات ذلك الرجل ؟

— نعم قد مات في سجون (ديوان التفتيش)

— أكان مسيحياً ؟؟

— لا أدري ... ، ومع هذا فَلِمَ تسألوننى عن المسيحية كثيراً ؟ وماهو

دخل الدين المسيحي في (ديوان التفتيش) ؟؟

وماكادت السيدة تُتِمَّ كلامها حتى بدأ رجال التعذيب في تعذيبها
تعذيباً مخيفاً تقشعر لذكره الأبدان

[انتهى]

* * *

الفصل الخامس

- وبعد
- الاتحاد السوفياتي والأقليات الإسلامية
- الاتحاد السوفياتي والعالم الإسلامي
- الحروب الصليبية المستمرة
- الخاتمة

وَبَعْدُ ...

فهذه صورة حيّة نابضة ، تتحدث بذاتها عن ذاتها ، وتنطق بحروفها وكلماتها بمأساة إنسانية ، ومجزرة جماعية عالمية ، وعصبية ماعرف التاريخ لها مثيلاً ، ارتكبت باسم الدين ؟!! وراح ضحيتها الملايين ، وقهر خلالها الإنسان قهراً ، فكان « إبليس » وأغوانه قد تلبسوا تلك النماذج البشرية التي تسلّطت واستبدّت ... ، وعذّبت وذبحت ... وأزهقت الأرواح ؛ فما رَق لها جفن ولا ارتعش فيها عَصَب !!

استمرت في طغيانها أكثر من تسعة قرون ، والعة في دماء البشر ، أو راقصة مُترنّمة مترنّحة على أنين الشكالي والأيتام وصُراخ المعذبين ... مدموغة بحُمى الحقد الأعمى ، والجاهلية .. ، والصليبية ... ! تسعة قرون !!!

بل أكثر ...

ولقد تجاوزت « محاكم التفتيش » الخلاف العقائدى إلى الحجر على العقول والإرادات ، وكل رأى حرّ ، وأمسكت بخناق كلّ عالم يقول برأى يخالف ما تصوّرت واعتقدت والتزمت ، وجعلت من نفسها قيماً على الناس حتى فى أدق شؤون حياتهم وأصغرها ، وعطّلت فى الذات الإنسانية ما منحها الله تعالى من تكريم وتميز ... ، وما أمر العالم « غاليليو » وغيره بخاف عن أسفار التاريخ !

كما تجاوزت أيضاً صورتها الكنسية الضيقة ، وحدودها الزمنية المتعارف عليها ، إلى آفاق جديدة رحبة ، خارجة عن الإقليمية ، فطرت

أبواب العالم هنا وهناك في غزوة استعمارية ، تجعل من الناس رقيقاً ،
ومن أهل البلاد دُمى .. ، ومن أرضها مرْتعاً خصباً .

وكان من نصيب العالم العربى والإسلامى أن رَزَحَ تحت وطأة
« محاكم التفتيش » — الجديدة — سنين عددا ، وما يزال إلى أيامنا هذه
يُلمَلَمُ جراحه ، أو يُزيل آثار العدوان ... على عقله وحضارته وفكره
وثروته القومية ... ، في حركة ضعيفة تتلّس السبيل .

ومامن رقعة في هذا العالم (العربى الإسلامى) سِلِمَتْ من
أخطبوط « محاكم التفتيش » — الجديدة — ، مهما كانت صغيرة أو
كبيرة !! وهى إن سلِمَتْ من الغزو العسكرى ، أو الاستعمار
السياسى ، فإنها مرهونة الفكر والشُّعور وأسلوب الحياة ... ، مقسورة
قسراً على التسليم بمنهجية « محاكم التفتيش » — الجديدة — وآرائها ...
أضف إلى ذلك ... الاقتصاد ... ، عَصَبُ الحياة ، فَإِنَّ أَهَمَّ
وأعظم ثروة لهذا العالم (العربى الإسلامى) مُشدودةٌ حبالها إلى أوتاد
خِيمة « محاكم التفتيش » — الجديدة — التى تَسْتَظِلُّ وتُنعم بِمالِ
المسلمين وثرواتهم ومقدّراتهم .

إن « محاكم التفتيش » لم تُنته ... ، ولم تُزل ... ، بل انتقلت من
« مدريد » و« ليشبونة » إلى « باريس » و« لندن » و« واشنطن »
و« موسكو » وغيرها !!!

والذى يدقّق في الصورة والأسلوب والغاية ... يرى ذلك
بوضوح ، أما من يأخذ الأشياء والأمور بسطحيتها البسيطة ، مظاهرتها
المألوفة بأنه كالذى يستغشى بثوبه من البرق الشديد الخاطف ، واللّمعان
الباهر .

ومن نافلة القول أن تُعَدَّد بِقَاع الإسلام التى لعبت — وتلعب —
بمصائرنا أيدي « محاكم التفتيش » — الجديدة — سواء عن طريق مُباشِر
أو عن طريق صنائعها ...

كما أن من نافلة القول أيضاً أن نردّد بأنّ الدُّعاة إلى الإسلام هم
المتهمون الرئيسيون فهُم :

الرجعيّون !!! والمتطرّفون !!! والمتآمرون !!! وعُملاء الاستعمار
والامبريالية !!! إلى آخر ما فى القاموس من مرادفات الشتائم ...

والواقع الذى لا مرية فيه أن الأمر ينطبق عليه القول المأثور :
[رمئنى بدائها وأنسلت ...]

هكذا تأب « محاكم التفتيش » قديمها وحديثها ،

وليس حتماً أن تكون « محاكم التفتيش » — الجديدة — على نسق
سابقتها فى الحجر الفكرى والعقائدى من قِبَل رجال الدين وأخبار
الكنيسة فقط ، بل يُمكن أن تُخرَج عن صورة القلائس والأوثاب
السوداء الفضفاضة إلى مظاهر أخرى وزى آخر !!؟

الاتحاد السوفياتى والأقليات الإسلامية !!

من التزوير الفاضح على التاريخ أن تنطلى أكذوبة الأقليات
الإسلامية فى الاتحاد السوفياتى !! ومن التزوير على أنفسنا أن تتقبّل هذه
الأكذوبة دون تمحيص أو تحقيق ...

ليس هناك رقم محدّد لعدد المسلمين فى اتحاد الجمهوريات
الاشتراكية السوفياتية ، ولكنه لا يقلُّ بحالٍ من الأحوال عن الخمسين

مليوناً من البشر ... ، حسب ما يُنشر ويُذاع من إحصائيات عن الكثافة السكانية في المناطق الإسلامية .. ، فهل يشكل هذا الرقم [أقلية] بالنسبة إلى التعداد العام للاتحاد السوفياتي ؟؟

ومن التزوير — أيضاً — على (التقدمية) أن تُعْتَصِر حياة المسلمين الاقتصادية في قَرْصَةٍ مكشوفةٍ مفضوحةٍ ويُستولى على ثرواتهم قَسْراً وَغَضَباً ، عِلْماً بأنَّ مناطقهم هي أغنى مناطق الاتحاد السوفياتي بالثروة المعدنية والزراعية والحيوانية ، وتشكل من ناحية الثروة القومية أعلى نسبة .

والذي يُرجع إلى السنوات الأولى من عمر الثورة الاشتراكية ، ما بين سنتي (١٩١٧ إلى ١٩٢٢) يرى بوضوح لا لبس فيه كيف كان الزحف على المقاطعات الإسلامية ، وكيف ضُمَّت إلى الاتحاد غصباً وقَهْراً ، ويرى أيضاً طغيان العنصر اليهودي الحاقدي الذي استشرى آنذاك في قلب المجلس الثوري^(١) .

إن إسرائيل تُقيم الدنيا وتقعدها على الاتحاد السوفياتي الذي لم يكن يسمح بهجرة اليهود ، وإن سمَح بعد ذلك ، وبعد شُنْشَنَةِ الدَّعَايَةِ الصهيونية واتهام الثورة الاشتراكية بمعاداة السامية ، فبأعدادٍ قليلةٍ لاتتجاوز المئات ...

إسرائيل الحريصة على العنصر البشري كيدٍ عاملةٍ وخبرةٍ تقنيةٍ لتستفيد من وراء ذلك في عملية بناء الدولة الغاصبة المعتدية ، ذات الهدف التوسعي على حساب العرب والمسلمين ، شعباً وأرضاً ...

(١) بُرِجِي مراجعة كتب «موسكو وإسرائيل» لمؤلفة الدكتور : [عمر حليق] .

وهي في هذا تناصبُ الاتحاد السوفياتي العداء ، مستقوية
بأمريكا ...

فَمَنْ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْإِتِّحَادِ السُّوفْيَاتِي ؟ الَّذِينَ يَتَّكِلُونَ مَعَ مَرُورِ
الزَّمَنِ ... ! وَالَّذِينَ يَتَلَاشَى أَرْتِبَاتُهُمْ وَيَضْمَحِلُّ كُلَّمَا أَنْقَضَى جِيلٌ وَتَبَعَهُ
جِيلٌ آخَرٌ ... !

هناك زُوَّارٌ مُسْلِمُونَ يَرْتَحِلُونَ إِلَى الْإِتِّحَادِ السُّوفْيَاتِي بِزِيَارَاتٍ رَسْمِيَّةٍ
وَدَعَوَاتٍ خَاصَّةٍ ، وَيَقُومُونَ بِالِاتِّصَالِ بِالْمُسْلِمِينَ فِي « أُوزْبَكِسْتَانِ »
و« طَشْقَنْدِ » و« بَخَارَى » وَفَقْ مِنْهَجٍ رَسْمِيٍّ يَصْحَبُهُمُ الْمُرَافِقُونَ وَالْأَدْلَاءُ
الْمُتَرْجِمُونَ ، وَكِلَا الطَّرَفَيْنِ : الزَّائِرُ وَالْمَوْطِنُ تُحْصَى عَلَيْهِمُ الْأَنْفَاسُ ، فِي
مِرَاقِبَةٍ دَقِيقَةٍ ، حَتَّى لَا يَكُونَ هُنَاكَ أَذْنَى تَصَارُحٍ أَوْ تَبَاحُثٍ فِي الْعُمُقِ ...
اللَّهُمَّ إِلَّا زِيَارَاتٍ إِلَى الْمَسَاجِدِ حَيْثُ تَوْدَى الصَّلَاةُ خَالِيَةً مِنْ كُلِّ
مُضْمُونٍ ، فَاقْدَرْ لِكُلِّ مَعْنَى ...

أَلَمْ يَأْتِكَ نَبَأُ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : [مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ
فَلَيْسَ مِنْهُمْ] ؟! وَأَيُّ أَمْرٍ أَهَمُّ مِنْ تَحْرِيرِ الْمُسْلِمِ ... فِي عَقِيدَتِهِ ، وَفِي
عِبَادَتِهِ وَفِي حَيَاتِهِ ، وَفِي شَوْؤِهِ وَشَجُونِهِ ، وَنِظَامِ حَيَاتِهِ وَعَيْشِهِ ؟؟ أَوْ
مُسَاعَدَتِهِ عَلَى التَّحْرِيرِ ...

زَارْنَا مِنْذُ سِنَوَاتٍ فِي « صِيدَا » الشَّيْخِ : « ضِيَاءُ الدِّينِ بَابَا
خَانُوفِ » ، وَكَانَ اللَّقَاءُ عَلَى وَلِيْمَةٍ وَأُقِيمَتْ عَلَى شَرْفِهِ ، دُعَى إِلَيْهَا نَجْمَةٌ مِنْ
وُجُوهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ...،

و« ضِيَاءُ الدِّينِ » هُوَ شَيْخُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْإِتِّحَادِ السُّوفْيَاتِي ...
رَافِقُهُ فِي الزِّيَارَةِ إِلَى « صِيدَا » وَفَدٌّ مِنَ السَّفَارَةِ السُّوفْيَاتِيَّةِ فِي
« بَيْرُوتِ » ، وَكُنْتُ أُلَاحِظُ طَوَالَ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ الَّتِي ضَمَّتْنَا — خِلَالَ

الزيارة ومأدبة الغداء — أنه مُحاطٌ على الدوام بعنصرين اثنين ، لا ينفكان عنه ، ويلزامانه كِظْلُهُ ...

وهذه المرافقة الدائمة مفهومة الغرض والهدف ، وإن كَانَتْ في الظاهر تأخذ طابع « البروتوكول » والرسميات ؟!!

أما الأحاديث التي جَرَتْ والمواضيع التي بُحِثَتْ ، فإنها — والله شهيد علي ما أقول — بعيدة كُلُّ البُعْد عن هموم المسلمين ، وشجونهم ومصالحهم وقضاياهم ... ، ولا تتصل أدنى صِلَةٍ من قريب أو بعيد بالإسلام ...

وحينما أُرِدْتُ أَنْ أوجّه سُؤالاً مُنَعْتُ من ذلك ، مَنَعَنِي من معي حِرْصاً على عدم جرّ (المتاعب) للرجُل الضَّيِّف ...

تُرى هل يَقُومُ أمرُ الإسلام ، أو يَقُومُ طريقه وَيُسَوِّى سبيله من غَيْرِ (متاعب) ؟؟

تُرى ... هل أتمحّت صورة « محاكم التفتيش » من واقع التعاطي العقائدي وحرّية الممارسة الدينية للمسلمين في الاتحاد السوفياتي ، أو حرّية الرأي والفكر لأَيِّ مواطن ؟؟

الاتحاد السوفياتي والعالم الإسلامي

موضوع طويل ، واسع الآفاق ، متشعب الجهات والأبعاد ... ، ولا ندعي أننا في هذه العُجالة العارضة نلّم بكل جوانبه وتفرعاته ... ، فقط نريد أن نعرض له من زاوية ارتباطه بمادة البحث فما مدى الصِّلَة بَيْنَ « محاكم التفتيش » من جهةٍ وبَيْنَ الاتحاد السوفياتي والعالم الإسلامي من جهةٍ أخرى ؟

روسيا القيصرية ، وروسيا الاتحاد السوفياتي ، كلاهما له
أطماعه في (المياه الدافئة) وهذا تعبير مألوف يراد به حوض البحر
الأيض المتوسط ، الذي تشكل الدول العربية والإسلامية ، أو تُغطى ،
معظم شواطئه ، وتتحكم جغرافياً بمواقع لها أهميتها الاستراتيجية في
المواصلات الدولية ، مثلاً : مضيق « البوسفور » بين البحرين
« الأسود » و « المتوسط » ، ومضيق « جبل طارق » الذي هو بوابة
« المتوسط » نحو « الأطلنطي » ؛ وقنال « السويس » بين « المتوسط »
و « البحر الأحمر » باتجاه « باب المندب » إلى الشرق الأقصى من
ناحية ، والشواطئ الإفريقية الشرقية من ناحية أخرى ...

روسيا القيصرية كانت تطمع بالمياه الدافئة ومايزخر حولها من
خيرات العالم العربي والإسلامي ، وثروته القومية الهائلة ، تمشياً مع الروح
الاستعمارية التي كانت « مُوضة » .. ! في ذلك الحين ... ، وهل
تترك « فرنسا » و « بريطانيا » تسرحن وتمرحان ... وتضربان في الآفاق
من غير أن يكون لها حصّة؟؟

حاولت كثيراً أن تخرق الحصار العثماني أو تحطم بوابة الشرق من
هناك ، ولكنها لم تُفلح ... ، ولم تكن لتخفى تلك الأطماع ، أو
تسترها .. ، أو تداور أو تُناور ... أبداً .. ، بل كانت تُفصح عن
رغبتها علانية كصاحبة حق في « حصّة » معينة و (نصيب) معلوم ...
حتى كانت الثورة البلشفية (الاشتراكية) ...

وكلمة « بلشفيك » تُقابلها كلمة : « منشفيك » .. ، الأولى تعني :
الأكثرية ، والثانية تعني : الأقلية ، يعني أن السواد الأعظم من الشعب
الروسي ، (طبقة) العمال والفلاحين هم المستفيدون والمؤيدون
وأصحاب الثورة ... ، وليس هذا موضوع بحثنا أو مادته .

المهم أن (الثورة الاشتراكية) حاولت أن تتغلغل إلى قلب العالم العربي والإسلامي عن طريق إنشاء الأحزاب الشيوعية ، والذي يُراجع تواريخ إنشاء تلك الأحزاب يرى أن الظروف السياسية كانت مؤاتية ، حيث التطلعات القومية في التخلص من الاستعمار أو الانتداب كانت تتفاعل وتغلي كالمزجل ... ؛ ويرى أيضاً — وهذا هو الأهم — أن الاسماء المؤسّسة كانت (يهودية) ^(١) في مصر .. وفلسطين ... وسورية ... والعراق .. ، وإن لم تكن مؤسّسة فهي على الأقل صاحبة الفكرة والبنرة الأولى .

ولكنها جميعاً خورت وبقسوة أحياناً كثيرة من قبل السلطات الحاكمة ، وظلّت ردحاً من الزمن بين مدّ وجُزْ ، غير ذات تأثير سواء على الصعيد الفكري الحزبي ، أو على صعيد القاعلة الشعبية العريضة .

وازداد غليان العالم العربي والإسلامي خصوصاً بعد هزيمة الجيوش العربية في فلسطين وتشريد أهلها ، من خلال مؤامرة فاضحة ...

ثم كانت إطلالة الاتحاد السوفياتي المؤثرة عام (١٩٥٦) م من خلال صفقة الأسلحة (التشيكية) لمصر ، والتي سمّيت آنذاك بأسماء طنانه رثانة مثل : (كسر احتكار السلاح) وغير ذلك .

ولو أن الموضوع برمته لم يتعدّ السلاح لهان الأمر ، ولكنه كان الوسيلة إلى تصدير الفكر والسياسة والوقوع في شباك التبعية ... وأى تبعية !!!

هناك مغامرة (دماغوجية) بين الوجود الغربي الرأسمالي الاستعماري الأمبريالي ... الخ ؛ وبين الوجود (السوفياتي) ... نصير

(١) كلب (موسكو وإسرائيل) للدكتور «عمر حليق» .

الديموقراطية ، وحركات التحرُّر ، والتعايش السلمى ، و ... إلخ أيضاً .
إذاً هو مقبول ومرضى عنه ... ، بل مطلوب ...

وبدأت (الاشتراكية) كنظام إجتماعى وسياسى واقتصادى ،
تتسلل إلى قلب العالم العربى والإسلامى ، تتسلَّل !!؟ غريبٌ أمر هذه
الكلمة ... ، بل إن شئت أن تقول الحقيقة : تتدفَّق .. !! وأصبحت
هى الدين الجديد ؛ ولولا طائفة من المسلمين — مهماً قبل فيها —
تصدَّت لهذا التيار الجارف لانتقلب الوضع إلى أسوأ بكثير مما هو عليه
الآن ...

وقامت « محاكم التفتيش » — الجديدة ؛ بكلِّ غثائتها وإجرامها
وتنكيلها تضربُ ضرباتها هنا وهناك ، فتقطع الرؤوس ، وترمى فى أقبية
السجون ، وترهب وترعب ، وتنفى وتُشرد ...

والملاحظ أن مامِنَ دولةٍ عربيَّة (طَقَمَت) شعارها بالديموقراطية
والاشتراكيَّة إلّا وكان نصيب الإسلاميين فيها أشدَّ العذاب وأقسى
البلاء ... ، وكلّما أُمعِنَتْ فى الطغيان لقيت تصفيقاً وتشجيعاً من
(الكرملين) لأنّها — أى الدولة — تثبت جدارتها ب (التقدمية) ...

الحروب الصليبية المستمرة

(المسألة الشرقية : Problème d'orienti) عبارة استخدمت
كثيراً فى أوروبا فى القرنين الماضيين ، وهى تحمل فى طيّاتها خلفيّة تاريخية
متأصّلة فى نفوس الغربيين بالنسبة إلى طُرْدِهِم من الشَّرْق بعد أن
اكتسحوه فى حملاتهم الصليبيَّة المتتابة ، وأقاموا فيه ممالك لهم ... ،
فترسّخت فى أعماقهم آثارها ونتائجها ، كما ظلت بواعثها تتفاعل مع

مرور الزمن ، يتحینون الفرص للانقضاض على الشرق من جديد ، واستعمار واستعباد أهله .

وما الشرق بالنسبة لهم إلا الديار العربية والإسلامية ، وجنودها الدينية والحضارية ، ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ... ﴾ ...

وتلازمت عبارة (المسألة الشرقية) مع عبارة : (الرجل المريض) ؛ وكانوا يعنون بها (الدولة العثمانية) ... ، وهى على الرغم من مرضها — حقيقةً — فى المرحلة الأخيرة من عمرها كدولة ذات سلطان واسع ونفوذ قوى ، أصيبت بالتآكل والانهيار ... ، على الرغم من هذا فقد استطاعت أن تصد أطماع الطامعين وتقف حجر عثرة فى طريقهم وشوكة فى حلقهم ...

إلى أن كانت الحرب العالمية الأولى ...

وقد هبَّء للدولة (العثمانية) فى الداخل كل أسباب الانهيار والسقوط .

فلما انتهت الحرب بتلك الهزيمة ووقعت البلاد العربية — الإسلامية — من جديد تحت وطأة التحالف الأوروبى ، ذهب قائد الجيش الفرنسى « غورو » إلى « دمشق » ودخل قبر « صلاح الدين الأيوبي » ... ووقف ينظر ويستعيد ذكريات التاريخ ، ثم ركل القبر برجله وقال : [لقد عُذْنَا يا « صلاح الدين » ...] وكأنه يقول : لم تنته الحروب الصليبية ، وهانحن فى حملة جديدة !!!

وتظل المياه الدافئة (حوض البحر الأبيض المتوسط) مطمحا من مطامعهم ، وهدفاً من أهدافهم ، فوطدوا فى دُولها وأمصارها أقدامهم ،

فكانت فرنسا في المغرب والجزائر وتونس ، وإنجلترا في ليبيا ومصر والسودان وفلسطين ، وفرنسا في سوريا ولبنان ، وأمنوا تقزيم وتحجيم (الدولة العلية العثمانية) إلى جمهورية طوارنية النزعة ، غريبة المنهج .. !

أما العمق الجغرافي الذي سَعَتْ إليه دولتا الاستعمار والانتداب : فرنسا وإنجلترا ، في بعض الدِّيار الإسلامية في آسيا وإفريقيا ، فقد كان الغرض منه إما الناحية الاقتصادية كبتول العراق بالنسبة إلى إنجلترا ، وخطوط المواصلات نحو الشرق الأقصى في (عَدَن) ، أو الناحية الأمنية ، أو كنقاط ارتكازٍ إلى قلب القارة الإفريقية ، كما فعلت فرنسا في السنغال وموريتانيا وتشاد ... وجيبوتي .

ولقد أَصْلَتْ الصليبيَّة الجديدة جذورها في الأعماق ، حتى إذا ما انتفضت الأُمَّةُ بدافع ما في وَجْهِ الاستعمار والانتداب ، سواء كان الدافع قومياً أو وطنياً ، وخرج المستعمر من البلاد ظاهرياً فإنَّ لَهُ فيها ركائز وقواعد ، في الثقافة والفكر ، في أسلوب الحكم ... ، في التطلُّع الحضارى ، وفي محاربة كلِّ ماهو إسلامي ... وهذا هو الأهم !!

لذا فإنَّ المعركة الإسلامية مع الصليبيَّة المتجدِّدة المستمرة ، تأخذ على الدوام أشكالاً وألواناً وصُوراً ... مختلفة ، وجبهاتٍ متعدِّدة ، ومن هنا كانتْ مَشَقَّة العمل وصعوبته ، وقسوة المعركة .

ولعلَّ المستنقع اللبنانيَّ طوال السنوات العشر الماضية هو أبلغُ صورةٍ عن الحرب الصليبيَّة المتجدِّدة ...

المستنقع الذي تَطْفَح فيه الدماء ولا تجفُّ ،

دماء المسلمين الذين كان قدرهم أن يكونوا وقود هذه الحرب !!!^(١)

(١) يرجى مراجعة كتب الحرب الصليبية العاشرة للأستاذ حلمي القاعود (دار الاعتصام - القاهرة) .

ولعلّ (محاكم التفتيش) في « إسبانيا » و « البرتغال » تتضاءل
وحشيةً أمام مبتكرات ، وأساليب « محاكم التفتيش » [الكتائبية] في
لبنان !!! لكلّ من هو مسلم ...

تتضاءل ، أو تتوارى خجلاً من عار الهمجية التي مارسها أتباع
رسول الرحمة « عيسى بن مريم » — عليه السلام — بحقّ الإنسان في
لبنان ...

* * *

الخاتمة

وبعد ...

فهذه صورة « محاكم التفتيش » بأقدميتها التاريخية ، وجِدتها المعاصرة ... كُلُّها آستهدفت وتستهدف الإسلام .

وطالما أنَّ المعركة قائمة ومستمرَّة فـ « محاكم التفتيش » ملازمة لها .

كما أن قلة قليلة من الناس قد أطلعت على مخازي وفضائح « محاكم التفتيش » في التنكيل بالمسلمين في « إسبانيا » والبرتغال ... ، رغم أننا قد قرأنا الكثير الكثير عن آستبدادها وغطرستها بالنسبة لكلِّ فكرٍ حرٍّ أو رأيٍ علميٍّ مَحْضٍ ، على غرار ماحدث لـ « كوبرنيكوس » و« غاليليو » وغيرهما .

وطلَّت تلك الأعمال البربريَّة — باسم الكنيسة والحقِّ الالهي — حيناً من الدَّهر تَضْرِبُ الرقاب وتكتمُّ الأفواه ، وتطغى ... حتى أوائل القرن التاسع عشر ... ، في عملية امتدادية واكتساحية .. كأنها التيار الجارف الذي لا يُقاوم .

ولد نَبَّهت الأحداث اللبنانية (الحرب القذرة كما يسمونها) التي بدَّأت منذ عام (١٩٧٥ م) ، والتي أثبتت بصورة قاطعة جازمة أنَّ « محاكم التفتيش » قد بُعثت من جديد بكلِّ فظائعها وجرائمها .. ، نَبَّهت حسبي ومشاعري إلى ماكنْتُ قد قرأتُ في سالف الأيام .. ، فَرَجَعْتُ إلى مطالعاتي ومايُبْن يدي من مادةٍ مكتوبةٍ أو مطبوعة ، واستعنتُ الله تعالى على صياغتها وإخراجها في هذا الكتاب ، لِأضعها

بَيْنَ أَيْدِي الْقُرَاءِ وَثِيقَةً لِلتَّارِيخِ ، وَخِدْمَةً لِلْإِسْلَامِ ، عَسَى اللَّهُ
— سُبْحَانَهُ — أَنْ يَنْفَعَ بِهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا

٩ جمادى الثانية (١٤٠٦ هـ)

٢٨ فبراير (شباط) ١٩٨٥ م

المؤلف

محمد علي قُطْب

المراجع العربية

- ١- (تاريخ وفضائع التفتيش فى البرتغال وإسبانيا) .
(جرجى حداد) طبع : (سان بلؤلؤ) - البرازيل - ١٩٢٣ .
- ٢- (ديوان التحقيق والمحاکمات الكبرى) .
محمد عبد الله عنان (دار الكتاب المصرية) ١٩٣٠ .
- ٣- (محاکم التفتيش)
الدكتور (على مظهر) ١٩٤٧

المراجع الأجنبية

- 1- Don Juan Antonio Liorente:
Histoire Critique de L'espace
- 2- Inquisition: (دائرة المعارف البريطانية)
- 3- Henry Ford:
The internationale jude (اليهودى العالمى)
- 4- Henry Charles
Lea: The Moriscos of Spain
- 5- Josef Condé
Histoire dela Arabes en Espagne .
- 6- William Prescott:
History of Ferdinand and isabella of Pain .

الفهرس

الصفحة

٥ المقدمة
٩ الفتح الإسلامى : أهدافه ومراميه
١٣ الحرب فى الإسلام هى حرب التحرير البشرية
١٥ الفصل الأول
١٧ الوجود الإسلامى فى الأندلس
١٨ الارتباط الأموى
٢٠ الارتباط العباسى
٢٠ الاستقلال
٢١ الدويلات
١٧ المرابطون ومعركة الزلاقة
٢٤ الموحدون
٢٦ المجتمع الأندلسى
٢٧ فضيحة لم يأت الدهر بمثله
٢٩ الفصل الثانى
٣١ السلطة البابوية
٣٣ العالم الإسلامى
٣٤ بداية النهاية
٣٧ الفصل الثالث
٣٩ شروط تسليم غرناطة
 غلبة - المعذبون - أمران أحلاهما مر - بذور العلم من جديد -
٤٢ - ٤٠ المغاربة السود
٤٣ يؤر جرثومية فى جسم الأمة الإسلاميه
٤٥ المراسم الملكيه لاضطهاد المسلمين
٤٧ سياسة البابوات والقساوسة والملوك (إبادة ومحو)

٤٧	الفرار ولا الردة
٤٩	متابعة حتى في خارج الحدود
٥٠	اضطهاد وإزلال !!
٥١	جعل المساجد كنائس
٥٥	إرغام على اعتناق المسيحية
٥٦	ومطاردة
٥٦	عودة المحاكم إلى شدتها وإجبار على التصبر
٥٧	رجاء
٥٨	لجنة لتقصي الحقائق
٦٠	اشتداد الديوان في متابعة المتصرين
٦٣	التدجين والاسترقاق
٦٤	مشروع بالنفى والتهجير
٦٧	النفى والتهجير والتشتيت
٦٩	عدد المنفيين
٧٠	مابعد النفى
٧٣	عدد الضحايا
٧٥	كيف بدأ ديوان التفتيش ؟
٧٧	سجون التفتيش في إسبانيا
٧٩	سجون التفتيش في البرتغال
٨٢	أنظمة السجون وقوانينها
٨٦	ديوان التفتيش في البرتغال
٨٨	حفلة حريق
٩٢	مذبحة لشبونة
٩٤	بركة البابا المقدسة
٩٩	الفصل الرابع
١٠١	مشاهير مجرمي الديوان
١٠١	مراسم الإحراق
١٠٥	مكان الحرق أو الشنق !
١٠٥	وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود !!
١٠٦	بؤرة جواسيس يسوعية

١١٠	تهم غربية توجه لبقايا المسلمين
١١٠	شهود وعيان
١١٢	دير ديوان التفتيش
١١٣	(العصابة) اليسوعية
١١٥	قاعة المحكمة وعرش الدينونة
١١٦	غرف آلات التعذيب
١١٧	آلات التعذيب
١١٩	أعظم يوم تاريخي شهده العالم بعد يوم الباستيل
١٢٠	فرديناند وإيزابيلا
١٢٢	صورة عن التصفية النهائية
١٣١	الفصل الخامس
١٣٥	الاتحاد السوفيتي والأقليات الإسلامية !!
١٣٨	الاتحاد السوفيتي والعالم الإسلامي
١٤١	الحروب الصليبية المستمرة
١٤٥	الخاتمة
١٤٧	المراجع العربية والمراجع الأجنبية

٨٥ / ٤ ٦٣٨ ٤١١ ٧١ ٥٦